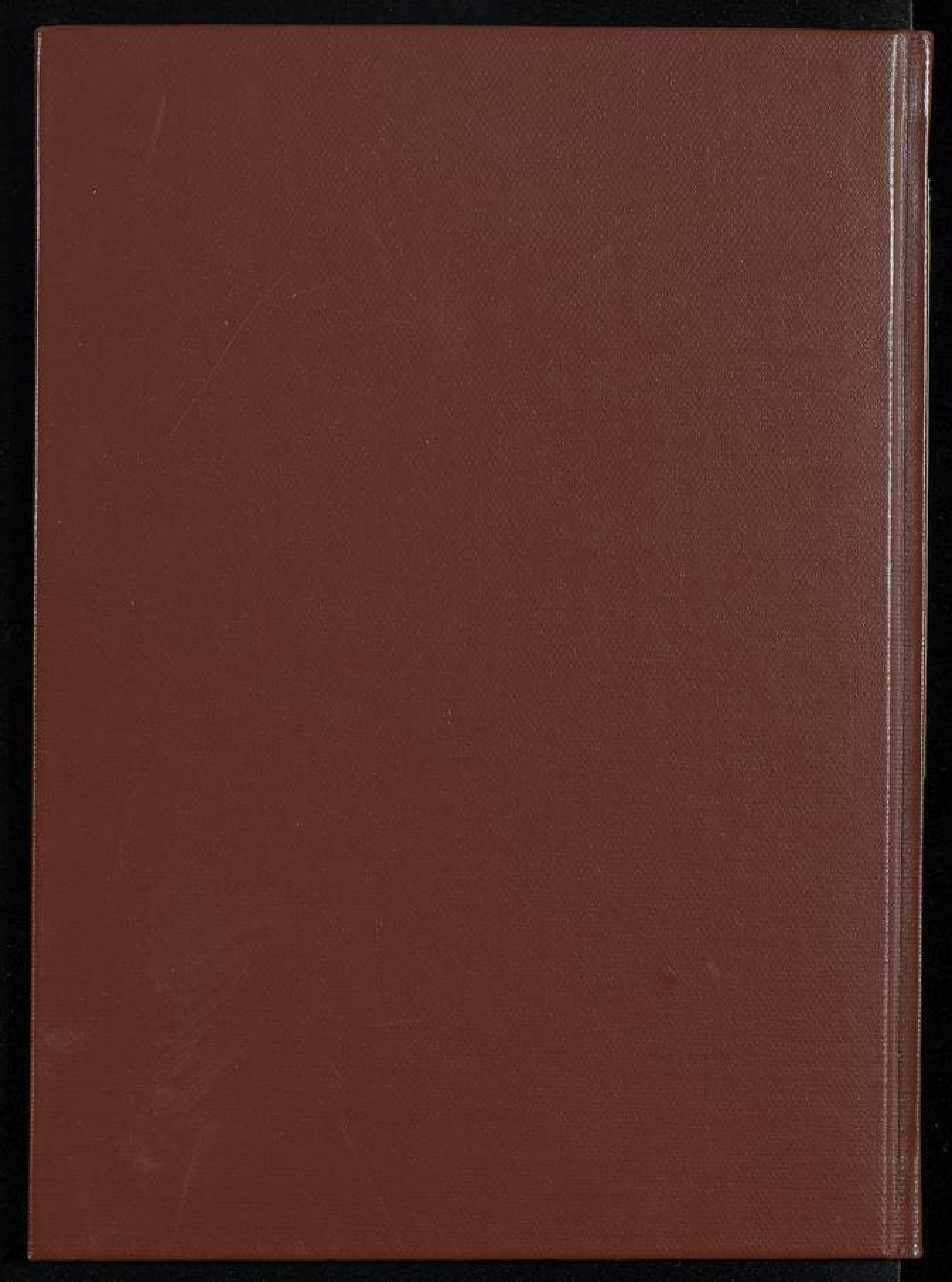
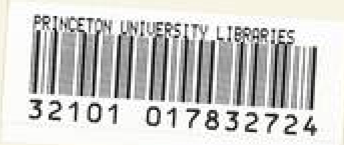
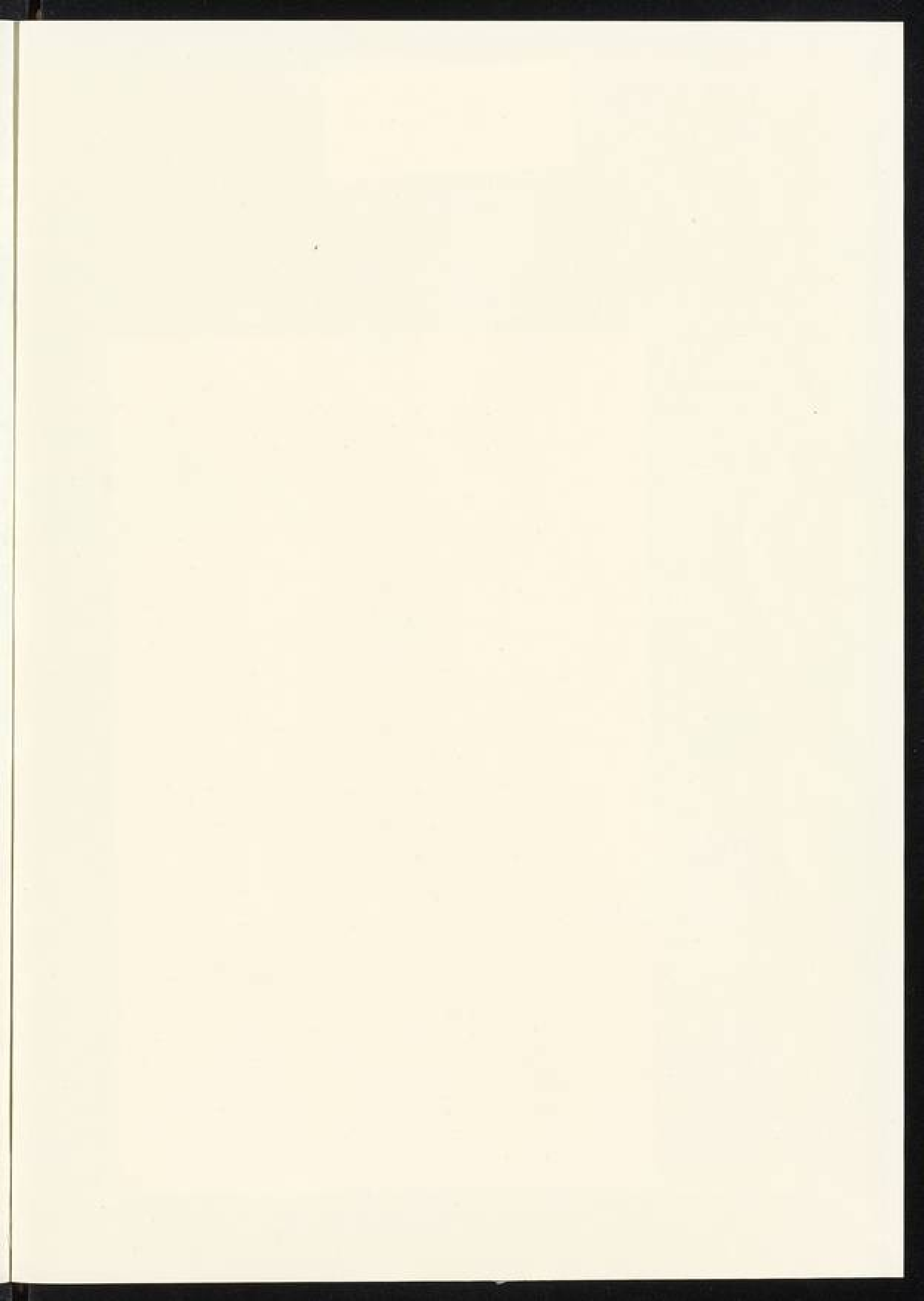
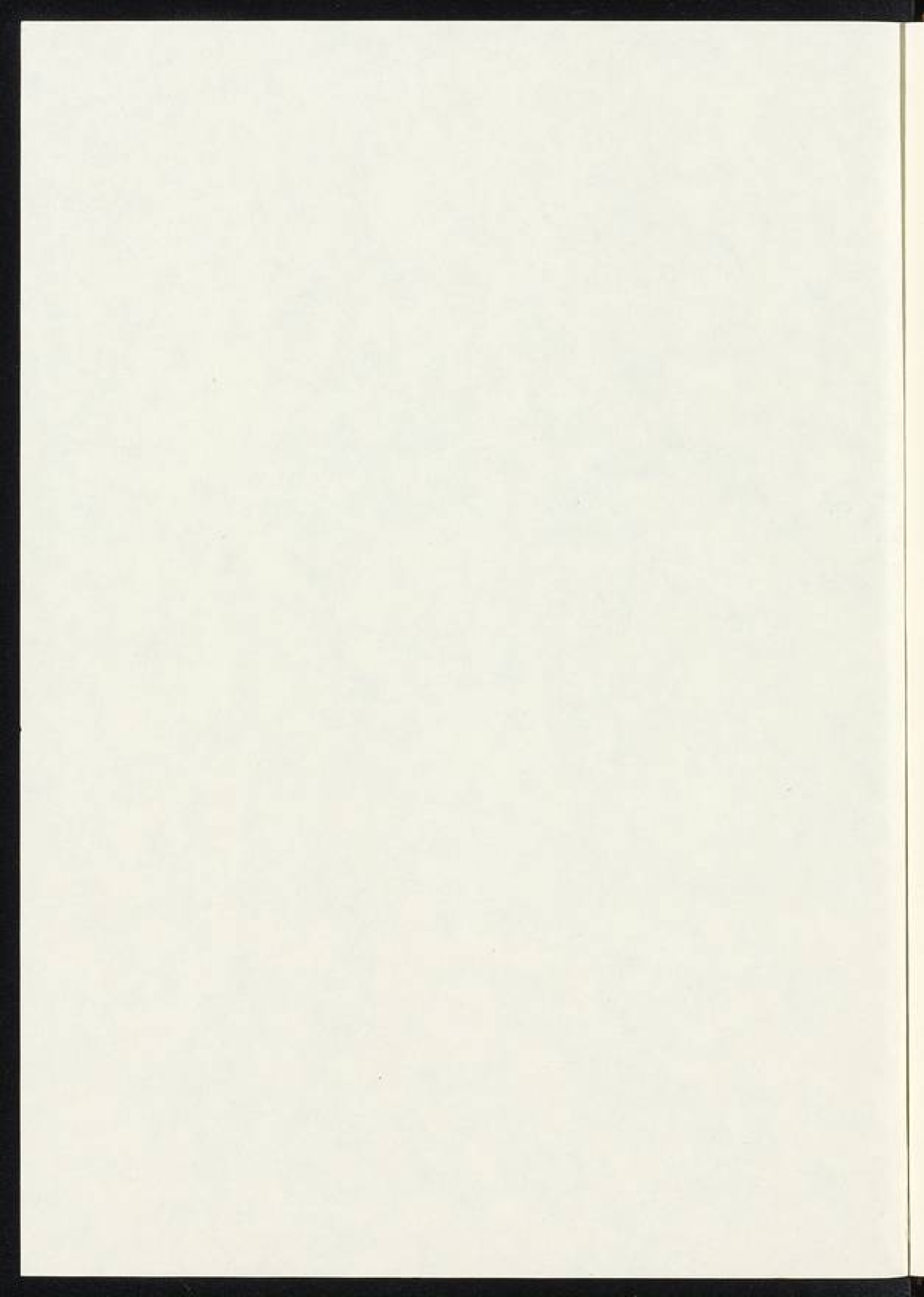
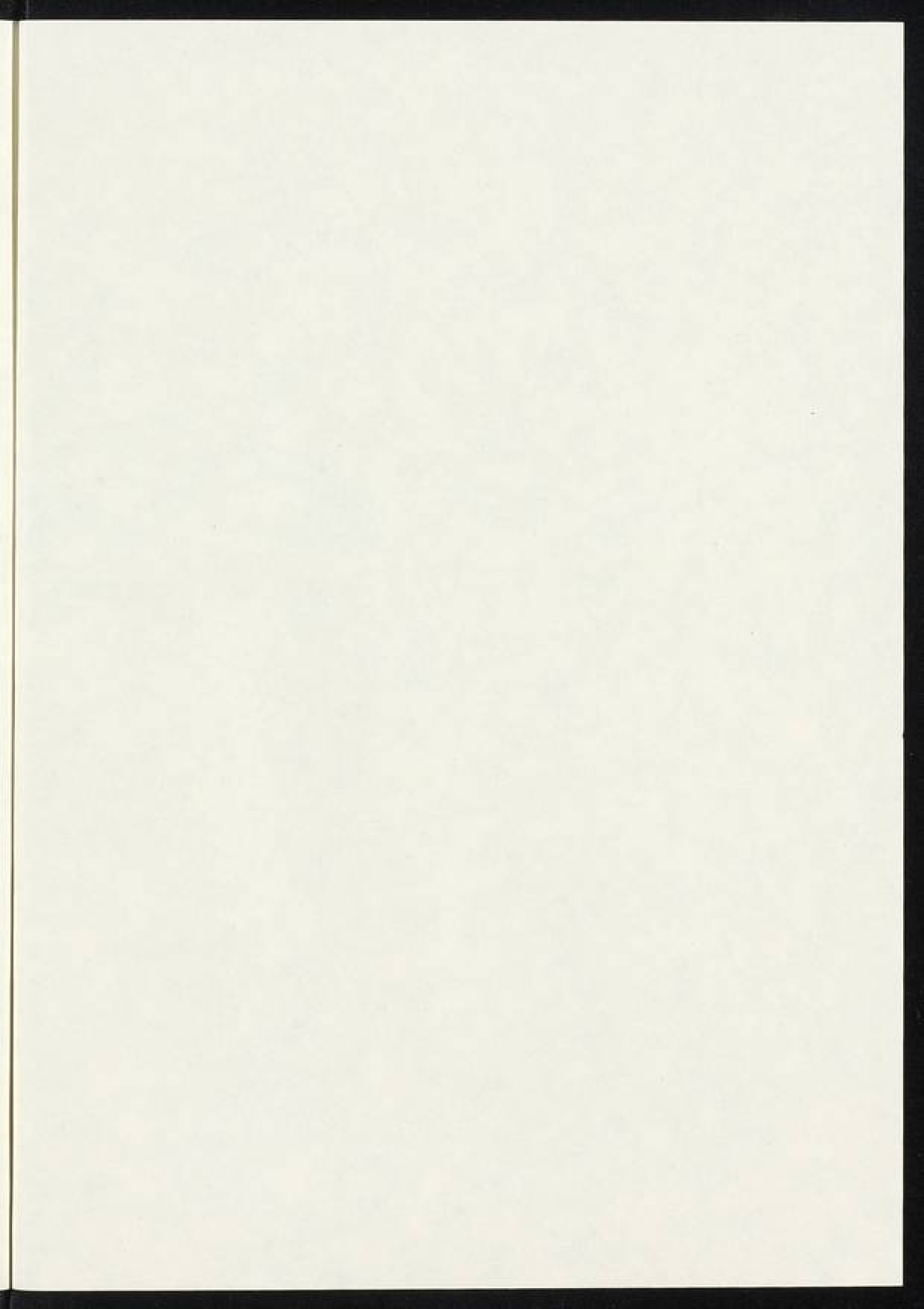


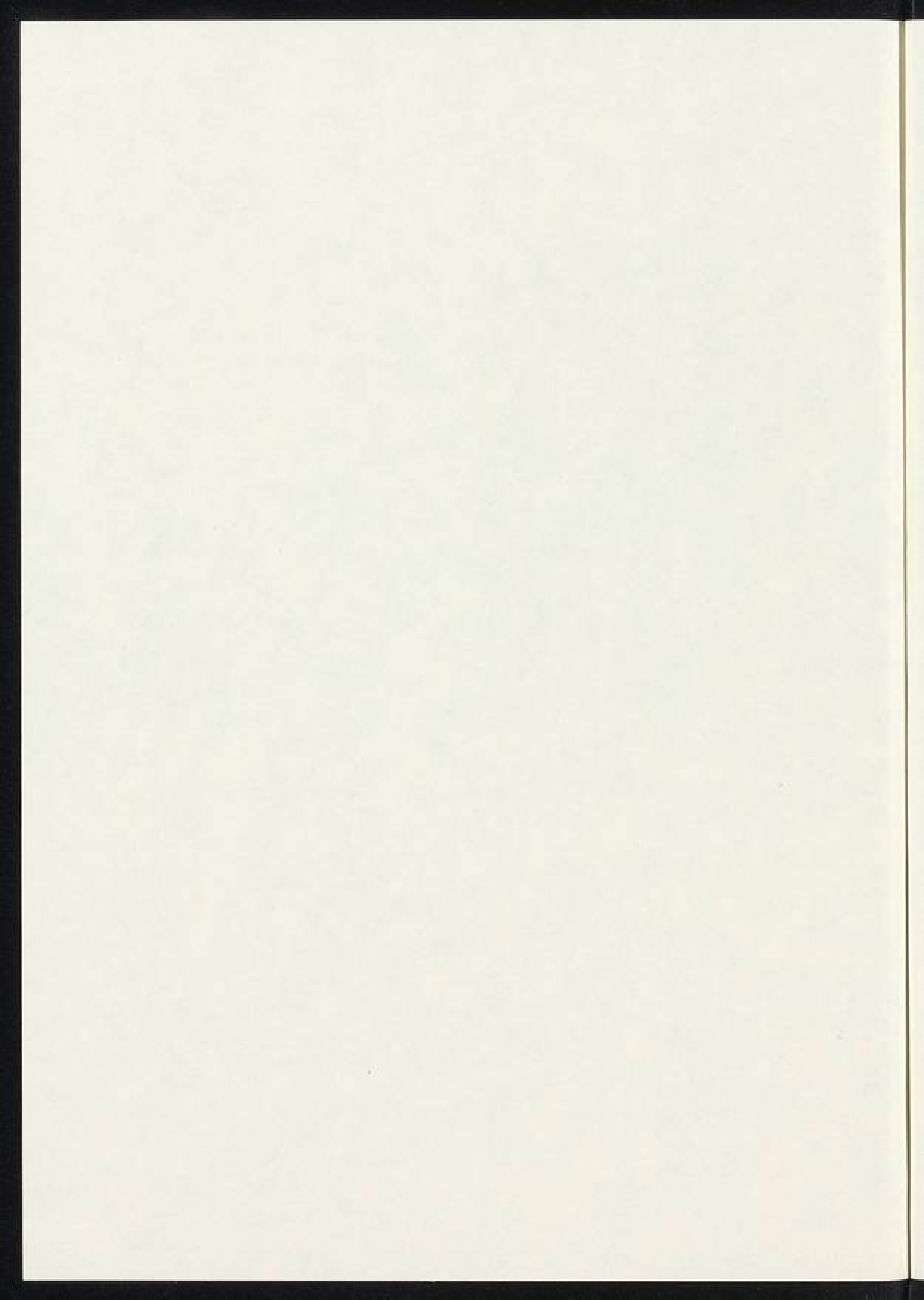


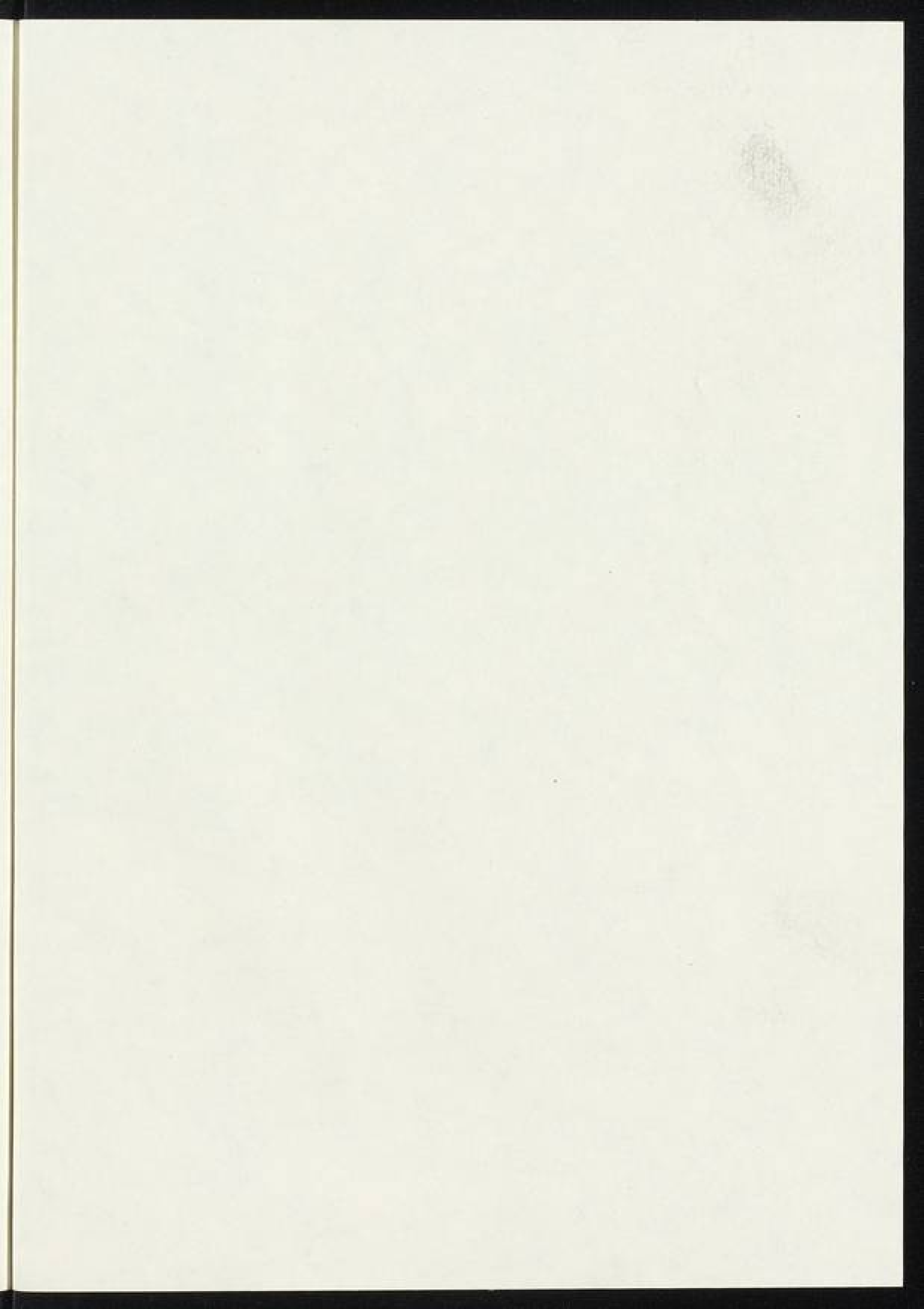

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARIES
32101 017832724











المفكرة الريفية

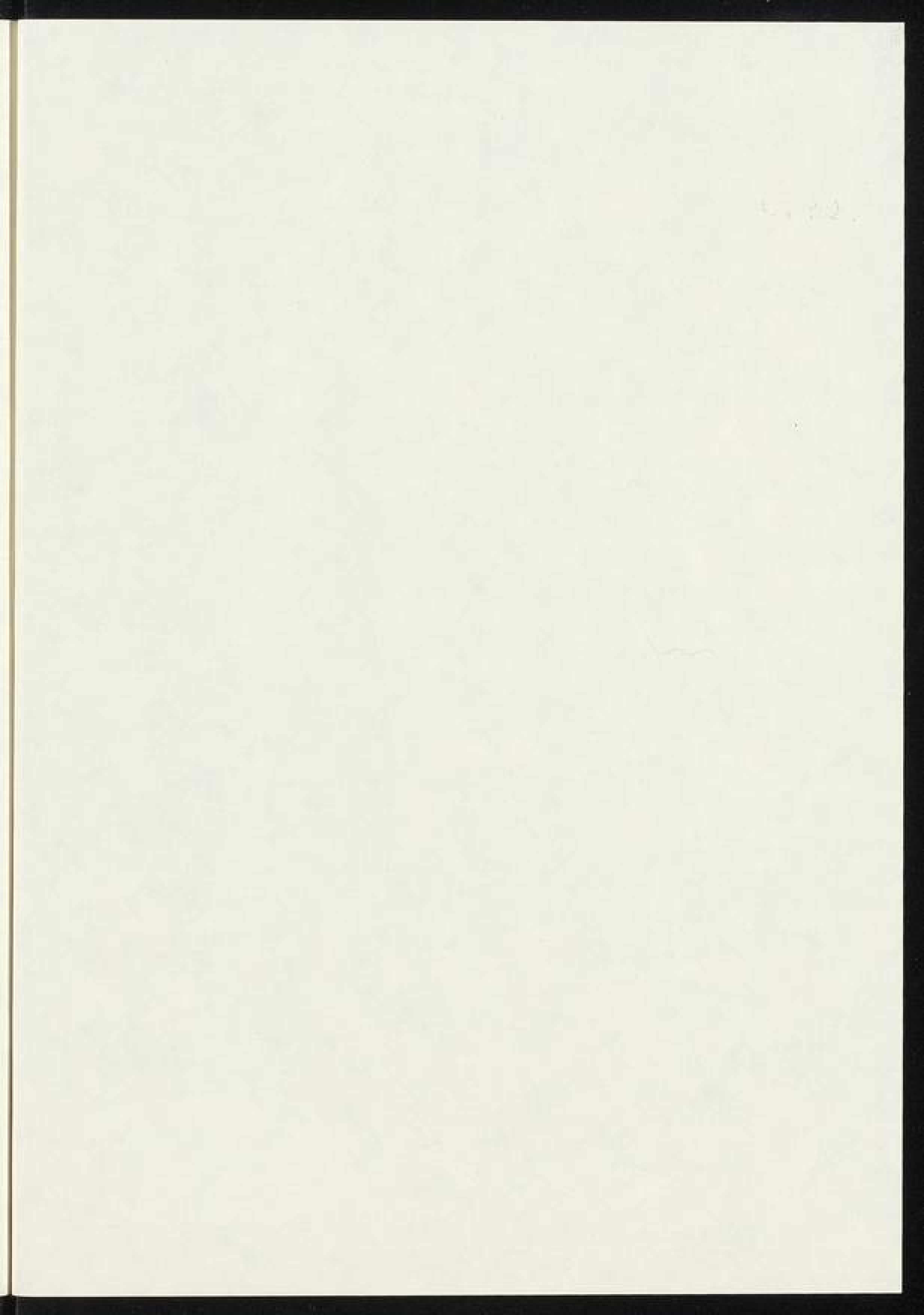
(لفؤاد افندي)

امين نخله

الطبعة الأولى في سنة ١٩٤٢

معها (قصة الفردوس الأرضي)

مطبعة الكشاف – بيروت



الى الأخ المؤرخ الاستاذ قدري قلعجي صاحب (الطريق)
هدية متواضعة بفضل المعاونة في اخراج هذا الكتاب.

امين نخله

Nakhlah

١٩٤٢

المفكرة الريفية

(لفؤاد افندي)

امين نخله

الطبعة الأولى في سنة ١٩٤٢

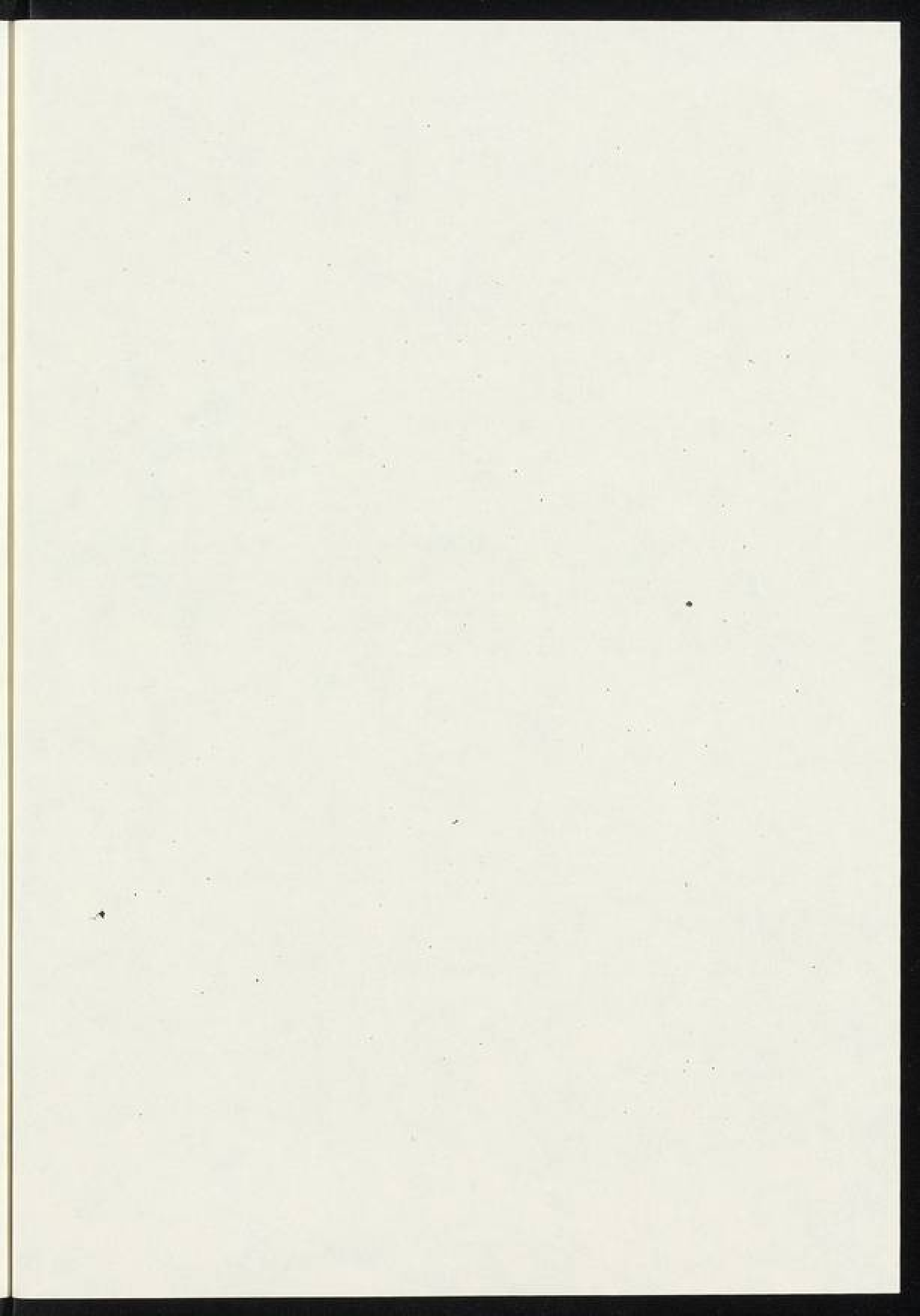
معها (قصة الفردوس الأرضي)

مطبعة الكشاف – بيروت

وُلِد الفنّ يوم قالت الحية لحوآء: « أطيب أكلة في الفردوس: التفاحة»، بدلاً من أن تقول لها: « كلي التفاحة » ...

فؤاد افندي

(وهي كلمة له في باب « بذور ريفية ، للزَّرع في المدينة » ، من « المفكرة » ، رأينا أن نفصلها عن بابها ونفتتح بها الكتاب) .



في سبيل المقدمة

دواة في الرّيف

الحبر ، ويحكَ ، نور أسود وكنز سائل ! وهو عطر الدفاتر ، وشَبَع الفراغ ، وريّ البياض ، وغيث الورَق . بل هو نقش الهوى ، ولون العقول في القرطاس ، فما لك تخشى على اطراف اصابعك ان تُشاب بسواده ؟ !

وليس من شيء هو الذّ في الشمّ ، ولا أضوع ، ولا اقرب الى مرتبة التشهّي ، من حبر جديد ، في كتاب جديد — تمرّ يدكَ عليه ، فكأنك تمسّ حركات الخواطر برؤوس انامِلك . . . بل انّ هـذا النسيم ، الذي تؤدّيه افواه الدّوَيات ، لأطيب من فم الحبيب ، ومن نفَسه ، ومن زمان الوصل بالأندلس . . .

وخير المداد : الأسود — فهو خبز الجميع ! امّا مـا كان منه احمر باحراً ، او اصفر وارساً ، او اخضر حانئاً ،

فبحسبك ، من الكلفة فيه ، معرفة هذه النعوت التي له ! وخير ما يُغطّ في حُقّ الذوق ومدهنة الرأي : قصبة نبتت في بسيط أفيح ، وعاشت على طلاقة ، وضياء ، وماء ، تلعب بين الرياح ، بلا مُعارِض ، ثمّ بُريت على هوانك ، وشُقّت على خطّتك في تحريك القلم .

وبعدُ ، فياعجباً لهذه الدواة ، في هذه الزاوية من الرّيف ، كيف نُسيت بلا ختمْ ! أفلا يخشى الذي ترك هذا القمقم السحريّ بلا سداد أن تهيج رائحته ، وتطير الى انوف الفلاّحين ؟ ! ...

امين

المقدمة

يوم نُشرت في الصُّحف طائفة من فصول هـذه المفكِّرة ، كان همُّنا ان نمسك عن ذكر القرية ، التي كتب فيها فؤاد افندي خاطرات باله . اما اليوم ، وقد انكشف الأمر للقرّآء ، واصبحنا لا نستطيع ان نخفي عنهم شيئاً ، من ذلك ، فاننا نسوق (التمهيد) القديم ، الذي استهلّت به فصول المفكِّرة ، ثم نسوق تعريفاً بقرية فؤاد افندي ، كتبه المؤلف في بعض المواضع من كتاب (التفّاحة) — وهو الكتاب الذي لم تجتمع ، الى الآن ، فصوله ، ولا أصابه ، والحمد لله ، ما أصاب هذه المفكِّرة من شمّ وعضّ ...

التمهيد القديم

يسكن فؤاد افندي عند حدود الضيعة ، في بلاد

الجبل ، بيتاً فيه حديقة ، وبركة ، ومطفرة ماء . فما ترى يعوزه ، بعدُ ، ليطوف كلّ يوم ، في مناكب الدنيا ــ في الحديقة ، ويجوب البحار والخلجان في البركة ، ويطّلع على خوارق العلم وحضارات الحديد في مطفرة الماء ؟!

ثم ما يعوزك ، انت ــ انت ايها القارئ ــ من أمره ، وما عليك منه ، فتسأل عن ابيه وجدّه ، وعن القرية التي يقوم في ظاهرها بيته ؟ فياسبحان الله ! كأن هذا الأنف ، الذي رُكِّب في وجوه الآدميّين ، (علامة استفهام) مقلوبة ، تُغرز في كل طارئة ! حتى لترى الواحد ، حين يدير وجهه بهذه العلامة الطالعة ، وهو كأنه يوشك ان يضرب بها رأس المسألة ...

فيا هذا القارئ : مـا الذي يعنيك من ابي فؤاد افندي ، وجدّه ، ومن قرية ميلاده ، ومن قيام بيته ، فيها ، بـين المزارع والمنابت ، لتأتينا ، الآن ، تطرح عينيك في الخريطة اللّبنانيّة ، مفتشاً في الرّيف العالي ، عن قرية ، يكون على حدودها بيت بحديقة وبركة ، وبرجل اسمه فؤاد افندي ، يعيش وحيداً من الناس ،

ويكتب خاطرات باله في دفتر صغير ؟!

أفلا يكفيك ، من انكشاف الغطاء ، ان فؤاد افندي يطالعك ، على يدنا ، بطائفة شهيّة من نتاج ذهنه ، ومحصّل نظراته ، فتلذها ، وتنعم بها ، وينقضي الامر ؟ ام انك تظلّ علينا قائماً ، تريد ان تتسقّط الرجل عن سرّه ، ونحن نردّك عنه ، حتى تضيق بنا ، وتنقلب ، من الغيظ ، عنا !

فبارعاك الله : نضرع اليك ان تصرف انفك عن هذه المسألة ، وتريح نفسك منها ، وتريحنا ، وتترك فؤاد افندي آمناً في سربه ، قريراً في معتزله . فهو قد انكمش عن الناس ، ولزم بيته ، مخافة أنف يدخل عليه ! — عدا ان معرفة ذلك لا تجديك شيئاً ، ولا تزيد شيئاً في قيمة هذه الفصول .

. . . . . .

فاما وقد قرّت الفورة ، بين القارئ وبيننا ، في هذه المقدّمة القصيرة ، فها نحن أولاء نلوي على خاطرات صاحبنا ، وهي كما وقعت لنا : لا متّصلة ، ولا مؤتلفة ،

ولا مغمورة بالخاطر الشائع، المموم الأطراف، الذي يصدر عنه الكتّاب، في مثل هذه القرحة من الكتابة.

التعريف بقرية فؤاد افندي

اذا اندفق النهار، فسال على مباسط الجبل، رأيتَ ضيعتنا عند صعدة (السُّقْي*) في بيوت متفرّقة، ناصعة من مسح الثلج، وحفّ الريح ... وفي دروب تذهب خَلَل المساكن والاشجار، كما تلوّي باصبعك ... وفي جدول يلتفّ على جنبات القرية، كأنه العقدة الزرقاء على طاقة الياسمين!

وأصدق التشبيه لهذه البيوت، القائمة من فوق هذه الهضبة، ان تقول فيها: جنّة بيضاء، في بعض اخضرار، مرفوعة على جنّة خضراء، في بعض بياض! كلّ ذلك في مدىً طويل، تماشيه الهضبات الجرْد، على الجانبين، وتغدو وإياه في اختلاف: تمام وحشة على تمام أنس...

هذه جملة ما يعرض للعين، من ذلك اللّوح الريفيّ

---

* – (السقي) ضاحية هنالك، على النهر، و(الغفر) موضع، بجنبه، بازاء (السقي).

المنمّق . امّا الذي يطرق الأذن في الساعة الفجريّة ، او في الظهيرة ، فصرخة الديك الملهوف ، عند ضاحية (الغَفَر) ، او رنّة الفأس على جذع شجرة ، او هدير الطواحين ، الذي تهمّ البيوت البعيدة ان ترجّعه ... واذا افلتت البقرة من يد الفلاّحة الصغيرة ، وانطلقت على رأسها ، خلف الشجر ، تجاوبت القرية بصيحات الناطور – فنواطير ضيعتنا غير نواطير مصر ! [(١)]

ثمّ هاتِ اصابعك ، اعدّ عليها المحاسن ، ممّا حولي :

اسم ضيعتنا – فتكاد تسمع جلبة النهر ، حين يُلفظ [(٢)] !

النهر (ذو الكَرَم الدافق) – يسقي على الجانبين ، ولا يبخل بقطرة .

درب النهر – تنحدر الفلاّحات ، في عشايا الصَّيف ،

---

(١) وهي للتي نامت عن ثعالبها في داليّة (ابي الطيب) : «عيد باية حال» .

(٢) الماء عندنا ، في بلاد الجبل ، اوفر اثراء ، وابقى شاهداء من الضياء . واذا جاء نيسان بالدّجن ، وسقيط الغيث ، احسّ اهل الريف ان زمانا ، اخضر اللون ، نسيته عيونهم ثمانية اشهر ، جاء من وراء البيوت ، يدخل من النوافذ ، عليهم ، ومن شقوق الجدران ...

بالجرار الحمر ، ويسلن فوجاً غبَّ فوج ، فتغدو الدَّرب نهراً للأحاديث والغبطة، يصبُّ من الضَّيعة الى الوادي...

(الدَّرب ، التي بين البيوت) ـــ فهاهنا تُنقل الاقدام ، الذَّ النقل ، في اثر بعض الخطوات .

خيمة الناطور (وهي في رأس الجبل) ـــ فتلتقي عندها العيون ، من كلّ حقل .

ريح الجبل ـــ وهي التي تهبط علينا ، من فوق ...

مقابر الفلاّحين ـــ فلا بلاطة ، ولا كتابة. بل طيب تراب الأحبَّة يدلّ على مراقدهم.

الحمام الأبيض ـــ الذي يصفِق في جوّ ازرق .

مزار الشيخ عزّ الدين (الذي على الربوة) ـــ تسعى اليه المصابيح، في ليالي الجمع . فالشيخ وليّ الله ، آمن به وباليوم الآخر، فاعتزل النّاس ، واطّرح الاباطيل . وهو لم يذق الخمر ، عمرَه ، فلما مات دُفن في وسَط الكرم ، على رأس الربوة !

كنيسة مار جرجس ــ الذي يحبّه القرويّون كثيراً ،
ويحلفون برأس حصانه .

عرائش (السَّقي) ــ التي يغنّيها اهل الزجل ، في
المواسم ، فتتدلّى منها العناقيد ، والقصائد !

ــ العناقيد يومئذٍ ...

الجمر الأحمر ــ فبين يدينا ، في المواقـد ، في ايام
الشتاء ، الف خدّ يلتمع .

ثياب الرّعيان ، ساعة يرجع واحدهم ، في عشيّة
الصَّيف ، بقطيع الضأن ــ فتعبق من عباءته روائح
المراعي ، والجبال البعيدة !

ــ قصص الرّعيان ، هؤلاء ...

الطواحين ، التي تهدر بين الاشجار ــ تهوّم لهـذا
الجمال الأخضر ، وهو ، من توالي الهدير ، كأنه ينعس !

اغصان الشجر ــ حين تتبادل الاشارات .

سدُّ النهر ــ يفتح ، ويسدّ ، على هواه ! فلا حاجة ،

١٦ ـــ المفكرة الريفية

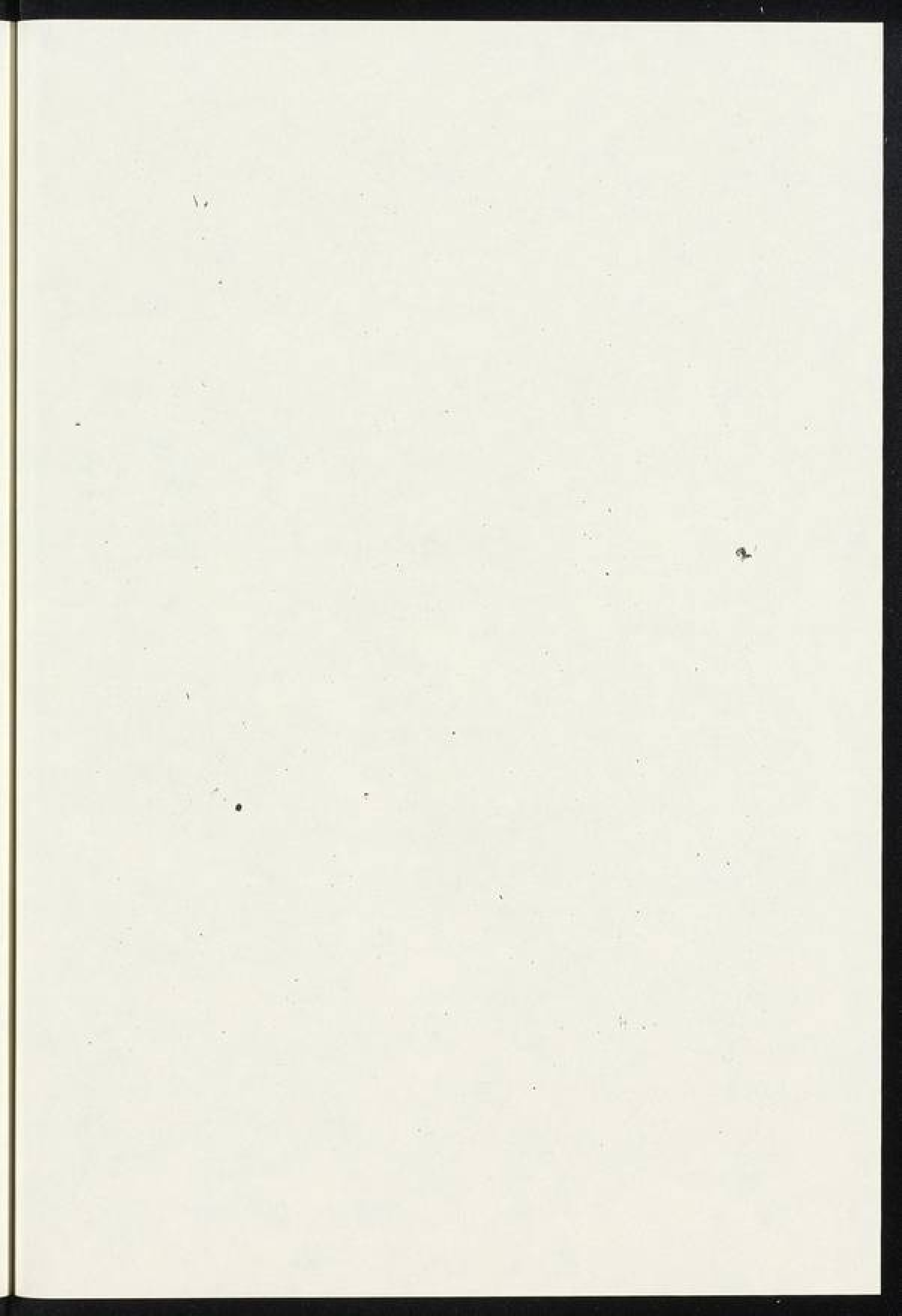
في ضيعتنا ، الى وزير من (هولاَنده) . . .

السروة السوداء (الصاعدة في الجوّ) ـــ فكأنها ،
وسط ذلك ، لفظة (آه) على الجمال الأخضر . . .

(بيروت ، في شهر نوّار ، سنة ١٩٤٢)

الكتاب الأول

في بلاد الجبل



على درب الريف

دروب الريف

الدّرب في الرّيف غير الدّرب في المدينة ! فهي التي تنهض من وهدة الى ربوة ، وتدور من خلف شجرة ، وتعرّج على عين ماء ، وتتوقّف في ظلّ حائط ، وتنطرح على باب بيت — تمشي على هواها ، والدّرب في المدينة تمشي في خطّ مستقيم ...

والدّرب في الرّيف بيضاء، تتلوّى في خضرة ، وهي في المدينة سوداء ، فاحمة، يعوزها الشجر، على الجانبين ، لتأنس بعض الأنس ، فوق ذلك السواد الطويل !

وعلى دروب الرّيف تعرف عابر السبيل من وقع خطوه ، وعلى رصفات الشوارع تتشابه الأقدام ، جميعاً، في الحركة .

وكلّ درب في الرّيف قديم . فيقال عندنا : فلان حوّل دربه عنّا ـــ يعنون انه غيّر عهده ، او يقولون : فلان حوّل الدّرب الى جهة كذا ـــ يعنون انه غيّر معالم الحدّ ، وخرج على القانون. . . لذلك تجد الدّروب الرّيفيّة محطّات للتذكُّر : فها هنا زُفّت عروس ، وهناك خرجوا بنعش ، وهنالك وقفوا ، ولوّحوا بالمناديل ...

خيمة البركة

في الرّيف ظلّان يحلو لظهر الأرض حملهما : ظلّ الشجرة ، وظلّ الفلاّح ! يدلُّ الأوّل على ان التربة جيّدة ، ويدلُّ الآخر على انها تعطي ، فلا ينبغي ان تُترَك . فكأن ظلّ الشجرة وفاء من الأرض للفلاّح ، وكأن ظلّ الفلاّح وفاء منه للأرض !

والشجرة في الغابة كالرجل في الشارع : لها الف نظير . فأمّا حين تنفرد في حقل ، او على رابية ، او عند منعطف طريق ، فهي ملعب الريح ، وملتقى الطير ،

ومائدته ، ومرقص مناقيره بين الورَق والثمر ...

فياخيمة البرَكة: هنيئاً لنا بانفرادك !

القمح

تهبُّ الزّعازع في كرة الأرض ، ويجري الدّم ، وتلعلع الأصوات ، من أجل القمح ــ لا من أجل الحلاوات بلباب الجوز واللّوز !! فهذا (الخبز اليوميّ) ينبغي ان يتوفّر كل يوم ! والدّم البشريّ يُقات بالنّشا ، والأُبهة التي يستشعرها الفلاّح، حين ترقص رغفان الخبز، تحت سقف بيته ، لا تُفقد بالهيّن !!

فأسالُ الله لهذه الاتلام ، الذاهبة في الحقول ، كالجداول ، ان تصبّ القمح في كلّ عام ، وان تسيل أماناً ، وسلاماً ، وخوفاً من القانون !

وفي العلوم، اليوم ، علم اسمه : علم القمح ــ وهو ، في ما اعرف، أجدى العلوم الأنسانيّة ! فأسالُ الله ان يجيء يوم يقال فيه : فلان علاّمة بالقمح، فهّامة بالسّنبل ...

العلاقة الريفية

تقول للرجل من اهل الرّيف: كيف بيتك؟ فيقول: عليّة تنهض بين الرياح الأربع ، ولا يخرق سطحها المطر! فتعجب له ، وهو يقيم في ذلك السكن الوادع ، طوال عمره ، لا يأكل الطيّب ، ولا يلبس الفاخر ، ولا يجلس على الوطيء ، كيف لا يتجافى عن مشقّة ، ولا يتأبه من قناعة !!

ان الديار ، وبقاع المثوى ، وتربة الصبا ، هي التي تحضن الأذواق ، والأنساب ، والطبائع ـــ فضلاً عن التاريخ المحليّ ، الذي يُحفظ في مجرى ساقية ، اكثر مما يُصان في جوف كتاب ! ففي هـذه المروج الرّيفيّة ، وكأنها من لجج ، وفي هذه الاشجار ، وكأنها من زمرّد ، يعيش واحدهم ، على طول اللّبث ، تعلّقاً بقبر دارس ، مثلاً ، لا بشجرة فينانة ، تقلق في النسيم ...

الزهرة الآدمية

المرأة في الرّيف أجلّ منها في المدينة ، وشأنها فيه أمثل ، وفضلها أتمّ . وهي في حقل السّنبل ، او على القطف ، خلف العنب ، اكرم يداً منها في جمعية الفنون الجميلة .. فالأجر على قدر المشقّة !

ومصاحبة المرأة للرجل ، على العلّات ، حتى في أحقر مصايره ، في الرّيف ، بين التقلّب والمعاش ؛ اسطع برهاناً على كونها قد خُلقت لمقارنته ، من قيامها الى جانبه في مناعم العيش ، ولذائذ الملهى والمطعم .

غير اني لا اعرف في الحزن شيئاً يحرّك النفس ، ويستدعيها الى الوحشة ، من مثل وجه امرأة عابس ؛ يطلع عليك ، في الرّيف ، بين الورق الأخضر والماء الدافق . . . فكأن الرجل الريفيّ قد أيبس هذه الزهرة الآدميّة !

فيا ربِّ : أدمْ ألفةَ ما بينهما . . .

صلاة العنز (في الريف)

ربِّ ! سجدتُ لك على ركبتيَّ ، وخفضتُ قرني ، هذين ، من فرط الخشية ! فامسح الأرض عشباً ، وورقاً اخضر ، واطلق حياض الماء ، واملأ الصهاريج ، ومدّ بساط الظلّ في أذى الهواجر .

ربِّ ! واجعل قلوب الرّعيان تخفق من رحمة ، وعصيّهم تملس من ليان ، وقصبات مزاميرهم تسيل من طرب .

ويا ربِّ ! أسألك بالغمام اذا نهض ، والغيث اذا سقط ، وبهذه اللُّجج من الخضرة ، كما أسألك بالزّرب والمرعى ، والقربة والعصا ، وبالجلجل وطنينه ، وشبّابة القصب وحنينها ، ان لا ترسل بي الى المدينة ــ آمين ...

الأنهر الشتائية

هذه الأنهر الشتائيّة ، التي تصبُّ في الرّيف ، من فيض الكفاية ، تهجم عليك بالكآبة ، وتستقبلك

بالانقباض ــ وليس ذلك من جهامة منظر ، وقبح طلعة، بل لكونك تعرف ، في ذات نفسك ، كيف مصايرها في بوارح القيظ ،يوم تجري الجداول ،على بطائح العشب ، بشفاء الغليل ، وتدبّ هي ، في قاع المجرى ، بذابل عَلَتْه خضرة !

وهيهات ان يشفع بها ، في عينك ، اليوم ، قاعدة جمال الأشياء التي لا تنفع شيئاً ...

الريف في المدينة

التفاحة ، عند بائع الفاكهة ، تبكي على أمها ، وتذبل على ذكر ايامها في وطن التفاح ! وربما اطلت من قفة القصب ، بخدها الأحمر ، وهي تكاد تقول : ارحموني من نهش وعض !

اما بواكير التفاح ، فهيهات ان يجد بائعها مشترياً يغرز اسنانه في خدود اطفال الثمر ، ولا يبالي ...

وعند بائع الزهر ، تطالعك الوجوه المدورة ، من كل لون ونوع . كأنها قد عرفتك ، او حسبتك قادماً ، من الجبل ، لساعتك . فتكاد تسألك عن شقائقها في بعض الوهاد ، وتغمزك ، في ذلك ، بأطراف عيونها — مخافة ان يراها صاحب الدكان !

ثمَّ ينكمش قلبك ، من الحزن ، على تلك الزهرات المقطوفة ... وقد فارقها الشَّذا ، واقامت في آنية الغربة ، تنتظر رحمة الله ...

أمّا العنب ، في دكّان الفاكهة ، فهو ظروف الحلاوة : يدبق ، وينضح ، ويكاد يقطر الى الأرض — فايّاك ان تمسَّه ، يلصق باصابعك ... اصبح العنب ، في المدينة ، لا يصحّ ان يُفضى اليه باليد ، من غير حائل ، وقد كان في الريف ، امس ، حبوبَ الرقّة ، التي تجري مع الريق !

وامّا البطّيخ الجبلي ، فيعجبني منه عناد رؤوسه ، في زاوية الدكّان ...

والقثاء الطويـل منبطح في الأرض ، من الغيظ ، على فرقة عصيّ النواطير !

واللوز الأخضر — وهو من جلب الجبـل ، كأنه

حبوب ربيعيَّة ، توزَّع في المدينة ، كما توزَّع البركة ...

والدّيك ، وهو فحل المصطبة ، اصبح في القفَّة ، عند بائع الدَّجاج ! ومن ذا الذي يصدّق انّ الصبح ، في الجبل ، صار يطلع بلا حاجة الى صياحه ! ...

واين ميزة التيقُّظ ؟ اين عين الديك ، وصيحة الدّيك ، يا باعة الخير ؟ ! ..

ويا سجين القفَّة : ان صديقتك ، في الجبل ، (الدّجاجة البيضاء) حرام عليها صحن الدار ، من بعدك !

وعند الصيدليّ (يختبى....) البنفسج في بعض الأوعية ـــ لا يترك شيمته الحلوة ، وان اصبح في بضاعة العافية ! (فهو يشفي البطون من الكظَّة ، ويدخل عليها الانتعاش) .

فياعجباً لذلك المتواضع ! يقيم بين قناني الزّجاج ،

فلا يضرب برجله من الانتفاخ والتعظُّم ، على انـه دوآء العيون وهو رطب ، ودوآء البطون وهو يابس ...

والعصفور ، بطل الحرّية ، ومقلقُ الغصن ، اصبح في القفص ، عند بائع العصافير ! هو ابن الجبل ، وبـلاد العالية ، وقع في اليد ! يقال في المثل : (صيحة في وادٍ) ، وفي هذا المقام يصح تغيير المثل ، كرامةً لعيني العصفور : (صيحة في شارع) ...

واين الحرّية التي ترجح ، عند العصفور ، بالأهل والرّوح ؟ ! اين التّطويف ببلاد الجبل ، والسّقيا من مآء العيون ؟ !

بين الريف والمدينة

الطبيعة الخلاّبة

اذا كانت المدينة لليوم القائم ، والجديد المتتابع ، فالرّيف ، وهو مناطق الصّمت ، واقطار السكون ، للماضي ! ها هنا تقف على كلّ دمنة ، وتبكي من كلّ ذكرى ، وتقول في كلّ أثر : كان ذلك ، والدّار جامعة ، والملتقى كَثَب ...

فالرّيف ، اذنْ ، باصداء الماضي ، وتذكاراته ، حَرَم مهيب – وهو بذا أشهى من ظنّك به ماثلًا في الحلي والزخرف ! فاذا تقضّى زمن المطر ، وجاء الصّيف ، قصد الناس بلاد الجبل ، افواجاً ، ينزلون فناء الطبيعة القديم ، ويخلعون فيه ثوب الزمن الجاري ، وقد ضيّق عليهم ، في المدينة ، تسعة اشهر .

ورأس السّبب في التذاذك بالمعالم الرّيفيّة ، وهرعك

اليها من المدينة ، ملْ فروجك ، هو ليس هذه الهندسة الريفيّة الحرّة — لا قيام البيوت والشجر ، على هوى الباني والغارس، ولا ذهاب السكك بين افواه الأودية، وظهور الحدائق . بل رأس السَّبب ، في ذلك ، هو هذه الطبيعة الخلاّبة، التي تحسّ معها انك شريك لها، من قديم، في مخازن النِعَم ، فلطالما عصمتك من فقر ، واعاذتك من هوان ، ورجّحت في قلبك ايثار الحريّة !

الماء الريفي

لو لم يكن الريف الاّ انه وطن الماء ، الذي يندفق من مهجة الأرض صافياً، حرّاً ، لكفى ! فالمدار في قيام العلاقة ، بين السماء والأرض ، هو على الماء ! ولولاه لما كان لكلّ ربوة نسيم ، ولكلّ غيضة ديمة ، ولكلّ وادٍ طراوة ، ولكلّ صوب من الأرض جوّ ، ولكلّ يوم من الاسبوع هواء يفرقه عن الستّة الأخرى . وليس الماء المقصود ، ها هنا ، ماء البحار ، والبحيرات ، والأنهر العظيمة ، فان هذه المجامع المائيّة تقوم بازاء

المدن ، و كأنها ، مع لصقها بها ، مستقلة عن التراب ، لا علاقة لها بلون النبتة على الأكمة ، ولا بنداوة الحجر في القاع ، على انها دَرَج الماء الى السماء في اعجوبة المطر ! فالماء المقصود ، اذن ، هو ماء العيون والحياض والصهاريج ، الذي يندسّ في تربة الرّيف ، وفي اوردة اهله وشرايينهم ، ويلوح لوحه في الخضراوات والخدود...

والماء الريفيّ هو الذي يخلق هذه الميزة (الذاتيّة) ، بين بقعة وأخرى ، من الأرض . تقول : (ديار اقامة ، وهواء ، وانتعاش ، وفيض خير) ، وتقول في ضدّ ذلك : (ديار لا يتنفّس فيها الخاطر ــ فلا بارك الله فيها) !! وسبب هذا ، كلّه ، مردود في الأصل ؛ الى عين جارية في الرّيف ، او ساقية مندفعة ، فيه .

نبع المدينة

القرية نبع المدينة ! تصبّ فيها السكّان ، من اوّل الزمن . ولا بدّ لكلّ واحد ، في المدينة ، من هوىً ينزع به الى نبعه ! فتجد في الزهرة ، التي يشكّها ذلك

(الأفندي) في عروته ، ويجول بها في عرض الشارع ، الف برهان عـلى انّ الأصل عون — كمـا قد قيل في المَثل ... وعلى انّ العروة ، لو كان لهـا شفتان للنّطق ، لهتفت بالحنين الى واد رويّ ، وحقل رغيد !!

اخبار ريفية

جاءَ نيسان ...

قدوم سعد ، وعود يُمن — ان شاءَ الله ! واهلاً وسهلاً بالقمر ، ويا فرحتنا باللّون الاخضر ، والنّسيم الطفل ، وبزمّ فم البرعم ، وبحركة العصفور ... ولولا ثقل الوهاد ، لقام الرّيف لنيسان ، كما يُقام للأجلاّء .

فيا غيثاً ، ويا غوثاً ، ويا خير قادم : الارض عجيج مسيل ، ورجفان طرب ، الى زهر أبيض يضحك ويتهلّل ، كأنه رقاع المواعيد تتفتّح ... فمن للنازح ، التارك ، بمن يقول له : جاءَ نيسان ، فجئْ الينا ، تنهض من بعد الى قرب ، ومن فرقة الى لقاء ، ونبسم أهل !!

ويا هذا الفلاّح ، الأسمر — ذا اليد الجافية من العمل — الذي خرج ، على بكرة النّهار ، الى حقل كأنه

منديل عروس ، فلمّا دار الف بقعة ، وارفضّ عرقاً ، اسند ظهره الى جذع شجرة ، وجلس يكتال الرّيح — : هنيئاً ، مريئاً ، وعَرَق عافية ، باذن الله ...

الى ذوي الذوق البرّي

سقى الله المراعي والحشيش ، وأيّامَنا في الجبل ، بالحُمُر الفارهة ، والبراذين الخفيفة ، وزمانَنا بارخاء فضل الرَّسن ... فدابّة اليوم ترعى في لحظة ، وتشبع في لحظة ! وقفة عند مطفرة البنزين ، ثمّ تنطلق بك ، لا تعقرها بردعة ، ولا يمضّها سفر ، في نهار او ليل ، بينما انت بها على ثنيّة الوداع ، اذا بك في ديار الأحبّة !

فآه زمن (الميكانيك) ، لله هذا الزمن ! كرة الأرض صغر حجمها ، والجهات دنت ، والمسافات قربت ، وتآوج النّاس بعضهم ببعض الفةً . فكيف الفرار من هذا التواصل الجديد؟ كيف لمن يريد ان لا يأتلف ، ولا ينغمس في المضايق ، ولا يصادم الأكتاف ، ان ينكمش عن النّاس ، ويأوي الى معاهد نفسه ؟ ! ...

يقال في النَّبات : بَرّيّ ، لخلاف البستانيّ ، ويقال في الحيوان : بَرّيّ ، لخلاف الأهليّ — فيا ذوي الذَّوق البرّيّ من الناس : اين تراكم تنعزلون ، اليوم ، عن النَّاس ! !

الفراشة البيضاء

تحطّ وتنهض ، ولا حطّت ولا نهضت ! بل جاءت في سياق الهواء ، تلتمس بطرف جناحها ورقة النبتة ، فلمّا احسَّت النداوة ، من قريب ، اقلعت بالجناح .

ويا لطف مقامها بين ورقتين ! تسائل ، حينئذٍ ، نفسك : أخضراء ، او بيضاء ! ? ونبات بروح ، او روح بنبات ? !...

جلاجل الريف

في يوم الدَّجن ، في الجبل ، تعقد قوس الغمام قنطرتها ، وقد تدلّى الورق ، واكمام النَّور ، من عيدان الشجر ،

فتكاد تسمع جلبة الجلاجل ، تحت القنطرة ...

امرأة ...

يا ربَّ امرأة في الرّيف ، كأن في سماء وجهها ، من السأم والملالة ، لطخ غيم ـ شفاها الله ! اتراها قد طالعت كلَّ كتب الدنيا ؟ ...

فيا ليت لي ان أسوق الى بيتها الحُمُر الزُّرق ، والغزلان الخضر ، والأشجار التي ساقها من ذهب ، واوراقها من زمرّد ، والجبال التي تخرج من قنينة ، والظعائن التي تمرق من خرت الإبرة ، وتغذ السير في بياض الميم ... مما لا يقع الآ في أخيلة النساء ! عسى ان امسح ، بذلك ، همّها ، فتدهن ، وتكتحل ، وتصفّف شعرها ، وتزجّج حاجبيها ، وتعود ، هكذا ، الى سابق عهدها بالنّعيم النسوي ــ وعفا الله عن الكتب ...

اخبار صغيرة

ــ اذا امسكت السماء ، في الرّيف ، لاسحابة ، ولا

عارض، ولا حركة لنسيم الرّيح، استمطروا بعنز سوداء، يُعكس رأسها، ويُهزّ قرناها نحو الجهات الأربع، فيقع المطر.

فهذه السماء العالية يشجيها ان ترى عنزة عطشى!

— واذا عافت الغنم الماء، وورد الكبش، وحده، تشاءموا بذلك على الغنم، وتوقّعوا أنكد شيء.

وعلى الحقيقة انه يكون من النّكد، في الأيام، ان يُروى الكبش، دون الغنم...

— وبالشجرة المستوحدة يعقدون الخيطان، ويعلّقون عليها الجلاجل، ومقاطع الزّجاج، عسى ان تُساء، في العيش، اعاديهم، وتُسرّ أصادقهم.

فالشجر، ايضاً، يفهم بلغة القرابين!

— وربّما عقد واحدهم بتلك الشجرة خيطاً لامرأته، وغاب عنها زماناً. فان خانته حُلّ الخيط من نفسه.

أي عقدة بعقدة — وواحدة لواحدة كفاء!

— واذا ارادوا صرف العاشق الواله عن هواه، جاءوا بمنديل صاحبته، فغمسوه في عين خرّارة، في أصل الجبل، واستقبلوا به وجه الشّمس.

فلا يلبث ذلك العاشق حتى يُحمل ، على توالي الأيام ودوران الشمس ، الى السّلوان ، فينسى صاحبته ...

ـ ويُصاب واحدهم بعلّة في عينه فيُجاء له بخرز زُرق ، تُعلّق في عنقه ، فيشفى من شكاته .

يشفى بالزُّرقة ...

اغاني ريفية

اغنية الابريق

على ذكرك الشهيّ ، تقوم القيامة في ضمير العطش ،
وفي طلعتك اللّؤلؤيّة ترقص الأحشاء !

تصبّ في الحلق — ياشلاّل الشفاء ، ومَدَد الجوف ،
وزغردة الانشراح — فينطفئ الغليل ، وتثلج الجوانح .
كأن للماء المريء سبيلاً الى النَّفس اليابسة !

ولأنت — ايّها الإبريق — وعاء الانتعاش ، واناء
الالتذاذ ، وقربة الاستطابة ،وجام القهقهة ، وزقّ البلّور
الذائب ، ودنّ البَرد والسلام !! ويطول بي القول ، جداً ،
قبل ان تفيك بعض الحقّ ، هذه الكلمات المبلولة بمعاني
نعوتك ...

ولقد اعرف ابريقاً ، في يدٍ غضّة ، بضّة ، أخذ من

لونها لونه، ومن شميمها شميمه، وجاء مكللاً بماء الزهر، او بماء الورد، او بماء تلك اليد ... يتصبب ويلتمع! فاذا أقبل، حسبتَ انه يهرول اليك، في حين انك انت تهرول! تأخذ بكفَّيك عنقه، وعروته، وتكاد — لولا اهل المجلس — تأخذ بفمك بُلبلته، تمصّها مصاً!!

ويا ربَّ ابريق، سعت به اصابعُ ريفيَّةٍ — سالت في رشح الماء اصابعها ... فلما وقع الابريق في الأرض، أخذ اهل الريّف يؤرِّخون بعام كسره ...

اغنية المغزل

في صحن الدّار المشتجر بالزّرع، وبين المعاصم والدّمالج، والغلائل والقمصان الرّقاق، يترنّم المغزل ترنّمه!

الله، الله، يا مغزل! ما اطرب دورانك في الأنامل الناعمة، ويا اضعاف طربك في الوقفة والحران.

ويا خيط المغزل: لا تنقطع، فبلاد الجبل احقّ الديّار بقميص العافية ...

اغنية العين

يا نعمة لا تتوقّف ، ونغمة لا تنقطع : عجباً ليدكِ القادرة في اللّيف والخشب ، وفي مهجة الحجر !

ويا زجاجـاً صفا ، وفضّة سالت ـــ لا غَرْف ، ولا خَوْض ، بل قلّة ذات برَكـة ، تفعل فعلها الأخضر في باب الخصب العميم ـــ : في مدحكِ استبحَرَ الرّيف !

اغنية السنبلة

كرأس العظيم ، تنخفض من شـاهق ! عـلى انّ حشوها حبوب الشّبع ، واسمها مرادف البرَكة .

ويارُبّ سنبلة تخفق في الرّيح ، فكأنّ الحَلْي في حركة ، والحرير في خَمْش ... حتى اذا ولّت الرّيح ، وانقضى مهرجان رفع الرأس ، عادت السّنبلة الى سابق عهدها بالدّعة .

فياريح : اذهبي ، ويا سنبلة : اخفضي رأسك ، من ثقل البرَكة ، ولا حرج عليكِ !!

اغنية نسيم الجبل

نسيم الريح هو ـــ كما تعلم ـــ نسيب الرّوح ، من قديم ! وليس من ينازع في هذا النّسب الطّيّب ... الا انّ النّسيم ، في بلاد الجبل ، هو العليل ، ابداً . فاعجب لابن عمّ الروح ، كيف يذكي الذّهن ، ويبسط الطّبع ، وكيف تصفو به كدورة النّفس ، على ضعفه واعتلاله !!

وبعض الكلام يذهب في الرّيح ... أمّا الاشواق والتّحايا ، وبقيّة هذه الحمولة الباهظة ، فانها تذهب مع النّسيم ، يسير بها ملء فروجه . فاعجبْ له ، وهو القطار اليوميّ ، الذي يسحب كلّ ذلك ، كيف لا يتباطأ ، ولا يتورّك ، ولا يكذّب المثل : (أخفّ من النّسيم) !!

ويا اهل الجبل : نسيم بلادكم لايموت ، وان كان عليلاً ...

مقاطع تمثيلية

« تجري حوادثها في الريف »

• **الراديو**

(فلاّحان يتحادثان) الأوّل ــ تمنّيتُ على الله ان تصبح علبة الرّاديو صندوق فصاحة ! وذلك بأن لا تنفتح الاّ على اصوات طبيعيّة ، خالصة ، قد صفت من كلّ تدبُّر. فمن شلاّل يجلجل في بعض الوهاد ، الى صهريج يبلع الموج ، وشجرة تخفق ، ومطرة تصبّ ، وديك يصيح على الغيطان ...

الفلاّح الآخر ــ امّا انا فاخالفك في هذا ، واتمنّى ان تظلّ (علبةالصّياح...)، هذه، علبة صياح، ابداً ! أفلا يكفي الأدب ، من قديم ، مزاحمة التّصوير والنّقش والموسيقى ، حتى تجيئه ، انت ، اليوم ، بهذا المنافس الجديد ؟ ! فاذا جلستَ الى الرّاديو ، وغمزتَ زرّه ،

واحسستَ انَّ كرة الارض تزلق من تحت اصابعك ، فاشكر الله ، عن القلم ، على ان لذّة الرّاديو تقف عند ذلك القدر ـــ ليس إلاّ . . .

عصر الثرثرة الكبير

(الفلاّحان نفسهما) الأوّل ـــ يظهر ، ياجار الخير ، ان قد اصبح بين الألفاظ والاشياء ، في هذا الوقت ، هوّة من البعاد ! على حين انه ينبغي ان تكون علاقة اللّفظة بالشيء ، اشبه ما تكون بعلاقة القطعة من النّقد بقيمتها ، والآن وقع (الافلاس اللّفظيّ) ، وصار الشيء الواحد في مقابل آحاد من الألفاظ ! وهذه الحال لها ، في ظنّي ، اسباب ودواعٍ . فنحن من زماننا ، في عصر الثرثرة الكبير ! جرائد ، ومسارح ، وتلفون ، وسينما تنطق ، ومجالس برلمان ، وفي الآخر : هـذا الرّاديو ، الذي لا يكلّ لسانه . فاذا دامت الحال هكذا ، جاء ، عن قريب ، يوم يصبح فيـه الأدب صناعـة وضع اللّفظ في مواضعه ! !

الثاني ــ تتعب رأسك بهذه الهموم ، حيث تستطيع ان تطرحها عنك ! فما تراه يهمك ، من هذا كله ، ما دام يقال لنبع الماء ، الذي في جوار بيتك : اوقيانوس محيط ، وانت ، حين تشاء ، ترج رجلك فيه الى الركبة ؟ . . .

نعمة العلم . . .

(فلاحان آخران) الأول ــ انَ قلبي يلويني على اولئك البعداء ، سكان المدينة ! يقضون ايام الربيع بين الحيطان ، لا يرون نبتاً ، ولا ينشقون نسيما جديداً ! !

الثاني ــ هوِنْ عليك ، يافلان ، فخطبهم أيسر مما تحسب ! إذ انهم ، في مواسم العام ، تُلقى اليهم الوف النسخ ، من تقاويم الحدائق ، وفيها من صور الغراس ، والحشائش ، وصغار الزهر ، ما لا تقدر ، انت ، ان تتهجى اسمه العلميّ . . .

قصائد ريفية

غزل

شرطُ اللذة في السَّحَر، والقمر طالع، يطمِس السُّرُج:
ان يكون في النافـذة اثنان : انتَ والآخر! امّا ان
تكون وحدك، فذاك من ذهاب النوم على القمر — لذا
تراني اسدّ نافذتي كلّ ليلة...

مطلع قصيدة

(الى شجرة في طريق...)

سقاكِ الله — كنتُ في الصّبا امرّ من تحت اغصانك،
فارتعش من اللذة! فصرتُ امرّ، اليوم، فارتعش من
البرد!

عنقود العنب

خذ بيدك ، في شهر ايلول ، عنقوداً ، من العنب ، وارفعه الى عينيك ، وانظر الى نور الشمس ، من خلال الشّفوف ، وتأمّل !! لا علبة الجوهريّ أحلى ، ولا خزانة البخيل اشهى ، من عنقود !

ففي عنقود ، واحد ، من العنب ما يملأ العين من السعادة . . .

شعر مدنيّ

ــ يا عابر الشارع ، في كلّ صبح : الشارع كاسف البال ، ملتاع ، فهو لا يعرف من حسنك الاّ نظرة عاجل ، يحثّ الخطى على الرّصيف . . .

قصيدة في مدح المطر

طوفانَ الخير ، وهطلَ البرَكة : جعلتَ الرّيف أحلى من الحواشي في ديوان شاعر اندلسيّ ، مطبوع

اشهى الطَّبع ، بنفقة مستشرق من (لَيدن) ... نقشُ البجاد ، ونقطُ الدَّيابيج ، يامطر الفضَّة !!

دارة القمر تنبئ بقدمك ، ومهابَ الرياح تنفخ البشائر قبل وصولك ، وتفتح الأرض قلبها ، بين يديك ، لتلقي ، انتَ ، فيه سرَّ الخصب ! وياحبَّذا فجأة الشؤبوب للنَّعجة ، عند سرادق الغابة ، وحبَّذا اغنيَّة النَّقطة في طرف الورقة ، وعلى زجاج النافذة ...

ويا ايها المطر : كأنَّ صوتك من وقوع الدنانير في الأرض ، فهو الذي لا يُسمع الاّ عند الخير ! باتَ النَّسيم لا يتنهَّد — شفي من علّته ... واصبح الغصن خفيفاً ، لامعاً ، راقص الورَق ، فهو اطرب من مزمار ! ولو انَّ تروِّي الجوانح يكون من المآء ، لخرج كلّ محترق القلب ، واله ، يكشف رأسه ، تعرّضاً لهطلك .

وبعد هذا ، فقفْ عن الهطل ، يامطر — نجّنا من الطّوفان ...

أغزال ريفية

(ملتقطة من فم شاعر ريفيّ دوّار)

ـ الف رغيف ، عند خبّاز الضَّيعة يدخل النّار ، والف رغيف يطلع منها . ولقد مررتُ البارحة بالخبّاز ، فلا والله ، ما رأيتُ رغيفاً قد احمرّ ، كخدّكِ ، ولا رغيفاً قد احترق كقلبي !

ـ يوم قفلتَ راجعاً من المرج ، وقد تركتَ وراءكَ ذلك البساط الأخضر ، الذي حرّكته قدماكِ ، نهضت زواياه الأربع تتلفت ، وتسأل عنك !

ـ إيّاكِ ان تذهب بعيداً عنّي ، فبلاد الجبل واسعة ! تضيع ، وهيهات ان يدلّني اليك من يراكِ ، ولو اعطيته هذه الدنيا !

ـ وإيّاكِ ان تخرج في الشَّمس ، اخاف على ظلّك ان يقع في الأرض !

ـ وإيّاكِ ان تقف ، في حقل جارنا ، الى جانب هذه السَّروة العالية ، مخافة أن يدّعي انك من شجراته !

مطالعات ريفية

خرير الماء قصيدة في المديح ، ليس وراءها مديح مرقص ! فلعمركَ ما التقت الشفاه على قصيدٍ أحلى مما يتنغَّم به الماء في خريره ، مادحاً نفسه ، شادياً بفضله ، وجوده ، على جذور الشَّجر ، وذرَّات التراب !!

ففي جيل الجحود ، هذا ، وقد بطلت عبادات الناس للسائل الحيِّ ... خذ بكفِّك غرفة من الماء ، وانظر وتأمل — الله ، الله ، في ذلك الإله القديم ! كم جهد في جوف الأرض ، وكم اضطرب في سفر ، لا يفتر ، ولا يهمد له سعي ، كيما يقفز العصفور من غصن الى غصن ، وهو في عافية وسعادة ...

والحمد لله ! فانَّ النهر يغادر حدود قريتنا ، ولا ينقلب الى وراء ... فلقد خففنَ اليه ، من الصبح ، وهو

في بعض عطفاته ، عليهنَّ القمصان الرّقاق التي لا تواري كنوز الأبدان ، وغسلنَ فيه الثياب البيض والأرجل البيض ، وقلنَ في هذا الجار كذا و كذا ، وقلنَ في تلك الجارة كيت و كيتِ ، وذهب النهر ، من هنـالك ، بألف قصّة . . .

واماّ القرية ذات البئر الفريدة ، فانَّ أسرارهـا واخبارها تُدفن آمن دفن !

وعلى باب الطّاحون لا بدَّ للدّرب من ان تتوقّف عن المضيِّ : فهنـالك موسيقى الرّحى ، وهناك الشّميم المنعش ، الذي يعبق من الباب ، فتحوّم الطير على طيب الرائحة ، وهي لا تعرف اين تدور (الدوائر) على الحبّ المشتهى . . .

وياطالما قلتَ ، في نفسك ، بين يدي الازاهير الرّيفيّة ،

التي لا تبرح مكانها ، ولا تعرف انت اسماءها : جادها الله ــ او الغيث ! فهي اشبه ما تكون بالجمال المضنون به على غير أهله !

اما الذي جاءها ، وهي بمكانها من تلك المنازل المنفردة ، فقد قرّت عينه ، وطاب فؤاده ...

وعلى الحقيقة انّ عصر المداواة بالزهر كان عصراً شهياً ! كان بالأرج يُداوى ، وبالملاحة يُطبّب ... وكان صاحب العلّة ، من الناس ، يقبل على الطبيعة ، وهي قائمة على ساقها ، لا كما نفعل ، نحن ، اليوم ، اذ هي طحين في علبة ، او عجين في حُقّ ، او سائل في قنّينة !

عصر (زهريّ) ، سقاه الله ... بُدّلنا به عصراً كيمياوياً ، تستقبلك فيه روائح العلّة على باب الصّيدليّة !

ويا ليت شعري ! كم في الناس من يحبّ الزَّهر لذاته ، ولطيب عنصره ، ولطف طبعه ، ولبذله النَّفس دون مكافأة ولا قرض ، فيسقيه من رحمة ، ويتعهَّده من رفق ، لا لكونه تُزان به الدُّور ، ويُفرش على الموائد، ويُرشّ على السُّرر ...

واما الحشرات الصغيرة ، التي تحتلّ باطن الأرض ، ولا تطلع من مدابّها المظلمة الا في حنيَّة حائط ، او في شقّ شجرة ، فهي تنعم ، وحدها ، بعالم الأصول الخفيّ ! ـ تريد خفية ، ويريد غيرها علانية ... اما هذا الانسان ، المتجوّل في ظهر الارض ، فهو لا ينحدر الى هاتيك المنازل ، الا وقد عاد ميتاً ، لا يستطيع الحراك !

وانَّ الشجرة التي تصطفق في الرّيح ــ وقد انقطع

عارض المطر ، ورُفعت النّقطة ، وعادت الأرض ، بآثار الرّبيع ، خضراء ـ لا بدّ لجذورها من ان تتحرّك ، وان تنشر الطراءة في باطن الثرى ...

وهكذا حشرات الأرض ، يكون لها ، وهي في منازلها العميقة ، ان تجد النّعيم على روض مقلوب !

والإوزّ ! لله ما اطرب اصواتها النّحاسيّة على الماء ـــ فقلْ في ذلك : ابواق عسكريّة ينفخ فيها من لا يعرف النّغم !

ففي الرّيف ابواق للعسكر ، ولا عسكر ، والحمد لله ...

وما عسى ان يقال في خيّاطة القرية ؟ ! وهي التي تلبس العروس آية العرس بيضاء ، او زرقاء ، او

حمرآء ، او لازوردية !

فكأنَّ بيتها العامر بيت قوس قزح . . .

وفي الشَّجر الذي التقى ونور الشَّمس ، بجوار الرَّابية ، اسعد ملتقى ــ وقد جلستَ ، انت ، من ذلك ، منظر العين ، وكرَّرتَ النظر في حقائق الخضرة ــ تحسّ روح الرِّيف ! فجمال يملكه الله ، وحده ، ودوام لا ينقطع ، وخير لا يفنى . . .

ثمَّ تنظر حولك ، فكأنما اصابع خفيَّة قد اومأت اليك ، تريد منك ، في حضرة الجمال ، أن تتحرَّك . . . فلا تصدّق ! لا أصابع تومئ اليك ، ولا احد يطلب منك أن ترقص من فرط الطَّرب .

بضاعة ريفية

عندنا ، في بلاد الجبل : العنّاب ، وهو يواقيت الفلاحين – زادهم الله عناباً !

وعندنا : الخرنوب ، وكأنه (قرون ليلى) في قصيدة (المجنون) . . .

والجوز واللوز ، وهما حديث الاسنان ، كلما تلاقت.

وعندنا : السَّوسن الابيض ، والسَّوسن الاصفر ، والسَّوسن المشرَّب بحمرة – والحمد لله الذي لم يجعل منه أخضر ، مخافة ان يُرعى . . .

وعندنا : الشَّقائق (الصادقة الحمرة) . ولا يعلم احد مَن مِن الطَّغام قد خمّش ، من قديم ، خدودها ! على انَّ الرِّوايات تذكر ان (النّعمان) حمى منابتها ، فكانت لا تُقطف الأ له – وانها لذلك أُضيفت اليه .

والقصَب ، وهو الذي به تُكتب حلاوات الرسائل

في الفرقة ، وتُنفخ فيه انغام الصَّبابة في كلّ وادٍ !

وعندنا : الثَّعلب ، ذو الرّوغان والكَيس ، وهو الذي لايستطيع الدّيك ان يدفعه عن الدّجاج . فاذا انقضت المعركة ، وقد طار الف ريشة ... عاد الدّيك ينفض عرفه ، ويجرّ الوشي المحبّر ـــ فالدّيك ديك ابداً !

والطاووس ، المزخرَف المنقوش ـــ وهو الذي يُكتب بواو واحدة ، كرامةً لسواد عينيه .

وعندنا : كرّاز الرّاعي ـــ وهو أقرن لا أجمّ ، لكنّه لايشتغل بالنّطاح ، بل يحمل خرج الرّاعي ، ويتخايل من تحته ، ويرقّص رجليه ، فكأنه يحمل خلعة السلطان ! والكرّاز ليس كالرّاعي في معرفة ايّام النّجع ، وحركات الغيم ، امّا في باب المراعي ومساقط الغيوث ، فلا ينتطح ، في أنه الفحل المقدَّم ، عنزان ! والكرّاز لايكبر في عينك ، ولا تثبت مهابته في صدرك ، الاّ وهو باطش جانب الزّرب . ومن النصيحة لك ، يومئذٍ ، ان لا تقرب حريمه ...

وعندنا : الغراب ، وهو الأسود الذي يطيف .

بالدُّور المعطَّلة يتلمَّس، وينعب، والذي اشتُقَّ من اسمه: الغربة، والاغتراب، والغريب... فكيف يكون لقلبك قرار على صياحه!

وعصفور التين، ذو الصغر والهوان، ولكنَّه ينقر كلَّ تينة، ويغادرها ممزَّقة الجلباب، هيهات ان تنضمَّ بعد الفتح.

والورد، وهو الذي حرَّمه (المتوكل) العباسيّ على النَّاس، وقصره على نفسه. جاء في (تأهيل الغريب): «وكان يقول: انا ملك السَّلاطين، والورد ملك الرَّياحين، فكلٌّ منَّا احقّ بصاحبه». وفي (حلبة الكميت): «فكان لا يُرى الورد الأ في مجلسه، وكان، ايام الورد، لايلبس الأ الثياب المورَّدة، ويفرش الفرش المورَّدة، ويورِّد جميع الآلات». وفي (مفتاح الذَّهب): «ومن قوله، مخاطباً الورد:

عارٌ عليَّ بان يشمَّك ساقطٌ،
او أن تراك نواظر البخلاء»

وفي (نزهة الأنام) : « ولهذا قال عليّ بن الجهم في رثائه : وصار الورد بعدكَ في انتهابِ . . . » .

هذا شأن الورد عند الملوك والعلية ، اما عند السواد ، فقد جاء في اخبار (المأمون) انه رُفع اليه حائك ، كان يعمل سنته ، كلّها ، لا ينقطع في نيروز ، ولا جمعة ، فاذا ظهر الورد طوى عمله ! وانّ (المأمون) لم يحقر الرجل ، بل ساعده على هذه المروءة (الورديّة) ، وأجرى عليه .

ولا بأس على الورد ، بعد هذا ، حين ينفرد (ابن الروميّ) بذمّه وتهجينه ، وبتفضيل النرجس عليه ، فللورد اسوة في (البحتريّ) ، وقد اوجب صاحبنا قطع مقوله !

وعندنا : البنفسج ، وهو ، في اللون ، اخو الفيروزج — لا الفيروز (أي بزيادة الجيم لتزداد المشابهة حتّى في الحروف) .

وعندنا : الاقحوان — ويارُبَّ اقحوانة هي في القدّ والغلالة ، والغنج ، وطيب النَّفس ، أشبه بامرأة منها

بزهرة ... وفي (تذكرة الشعرانيّ) ، عن (ابن عباس — رضي الله عنهما) ، انه قال : (أهبط آدم من الجنَّة باقحوانة) !

والخوخ ، ذو قميص اللاذ — وهو القميص الذي خرج فيه راهب (دير عبدون) في قصيدة (ابن المعتزّ) الدّيرانيَّة :

وجاءني في قميص اللاذ ، مستتراً ،

يستعجل الخطو ، من خوفٍ ، ومن حذرِ !

— وفي رواية من لا يستكثر الخاءات في هذا المصراع ، حبًّا منه لأحرف الخوخ ... — : « ومن خَفَرِ » .

واللاّذة ، كما تعلم : ثوب حرير أحمر ، نهاية في لطف الخيط .

وعندنا : المشمش ، وهو الذي يطاوعك قلبك في العضّ عليه ، بالرّغم من الذّوبان والحلاوة ، والذي تعرف ، في أكله ، كيف يكون لعق الأصابع !

والمشمش فتنة العلماء ! فلقد كان القضاة وشيوخ العلم ، اذا جاء زمن المشمش ، انقطعوا عن المجالس .

قال في (الخزانة) : « وأول مـن احدث منهم بطالة الدّروس ، في زمن المشمش ، القاضي نجم الدّين بن سنيّ الدولة ، بعد ان ولأه الملك الظاهر ، بيبرس ، قضاء دمشق وفي (البداية والنّهاية) (لابن كثير) ، رواية (الطبرانيّ) ، « انه كان له بستان بارض السّهم ، وكان يشقّ عليه مفارقة المشمش ، والنّزول الى المدارس ، فبطّل النّاس هذه الايام ، واتبعوه في ذلك ... » الى آخره .

وعندنا : القراصيا (ذات العلاقة الخضراء) وهي تكاد تُبتلع بالنّوى ، لولا احتجاج اللّهاة !! وبحسب القراصيا انهم في (الأندلس) كانوا يقولون لها ، على ما في (النّزهة) : « حبّ الملوك » .

والكرز ، وهو الذي يكاد يثب ، من نفسه ، الى فمك !

والرمّان ، وهو المخزن الأحمر ، للحَبّ الأحمر ! فيؤكل باليد ، وبالعين ... وفي (المُزهر) ، في الكلام

على انه اذا سُئل العربيُّ ، او الشَّيخ ، عن معنى لفظ ، فاجاب بالفعل ، لا بالقول ، يكفي: «قال الزجاجيّ ، في شرح أدب الكتب : سُئل رؤبة عن الشَّنَب ـــ وهو البَرْد والعذوبة ـــ فاراهم حبّة رمّان» ..

وعندنا : عرائش العنب ، التي أخذ التَّعريش ، في اللغة ـــ وهو الرفعة ـــ منها ! قال في الآية : «وهو الذي انشأ جنّات معروشات» . واضف انَّ العرش في كتب اهل (التَّفسير) ارفع من السماء ، وانَّ (عبد الله محمداً بن كرّام) ، المعروف بالمشبِّه ، يقول : انَّ الله تعالى استقرَّ على العرش ـــ لم يقلْ على السماء ! وهذا كلّه مردود الى فضل العنب ، وارتفاع عريشه !

فحصرمُ ، اذن ، في عين من لا يحبّ العنب ...

وعندنا: الزّبيب ، جفيف العنب (وربّما استُعمل في كتب اللّغة لما سُطح من التين ، فنشف ، قرناً لجفيف التّين بجفيف العنب ، وترغيباً فيه) ـــ يؤكل بقشره وعجمه ، ولا يُلتفت الى التّلذيع اليسير ، الذي يكون له

في الفم ، حباً لذكرى العنب ، وسالف زمنه !

والدِّبس (وهو ماء العنب) وقد جمد ، نكايةً في العسل !

والسَّفرجل (آيـة الصَّفرة في الشمّ والمـذاق والتدوير) ـــ وهو الذي لايبتذل حلاوته ، بل يجود بها على قدر ، فيغصّ آكله من نزاع النَّفس الى الباقي ...

وبحسْب السَّفرجل انْ رائحته تختلط ، في انف المتشمِّم ، برائحة الخمر ! قال الشاعر (وهو نقلُ ـــ البحر الرائق ـــ) ملمِّحاً الى قول (ابن مسعود) ، رضي الله عنه ، في قضيَّة حدّ الشَّراب : « تلتِلوه ومزمِزوه واستنكِهوه » ، الى آخر ما هنالك :

يقولون لي : انكهْ ، شربتَ مدامـةً ،

فقلتُ لهم : لا ، بل أكلتُ السَّفرجلا ...

وعندنا : البطِّيخ ، من مخطَّط وغير مخطَّط . قال في (النزهـة) ـــ ينقل عـن (معاياة العقل في معاناة النَّقل) ـــ : « البطِّيخ مشتقّ من التَّبطُّخ ، واسترخاء الجلد ،

ولين الجسم تحت يد الغامز. ويقال فيه ايضاً: طَبيخ. وهي لغة فصيحة، لأنه من الطَبخ، وهو النَضج، الذي لايتهيأ له التماسك». وفي (الأساس): «نعم حاطوم الطَعام: البطِّيخ» — اي نعم هاضوم الطَعام. فلقد جاء في (اللسان): «ويقال للهاضوم: حاطوم».. وفي (المطوّل على الحديث): انّ كلمة (نعم حاطوم الطعام) حديثيَّة، باسناد حَسَن. والذي عندنا، في ذلك، انّ حديث البطِّيخ والرَطب يمهّد لصحّتها. ففي (جامع الاصول)، عن (عائشة) — وقد اخرجه (ابو داود)، وهذا لفظه — قالت: «كان يأكل البطِّيخ بالرَطب، ويقول: نكسر حرّ هذا ببَرد هذا، وبَرد هذا بحرّ هذا».

وعندنا: الصعتر، ذو النَفحة، والنَعناع الذي يقطع الطريق الى القلب، والباقلاء الذي يفتح سدد النَفس، ويفتق شهوة الطَعام — وهو الذي كانوا يقولون في النداء عليه، في زمن (الزمخشري)، كما جاء في (الأساس): «شرقُ الغداة طريّ»، أي قطف الغداة.

وعندنا : الباذنجان — وهو الذي تصدّق عليه (الواثق) بعينيه ، جميعاً ... فقد جاء في (العقد الفريد) انّ (الواثق) كان مفتوناً بحبّ الباذنجان! كان يأكل، في أكلة واحدة ، اربعين باذنجانة ، فأوصى اليه أبوه ، وكان وليّ عهده : ويلك ! متى رأيتَ خليفةً أعمى ؟! فقال للرسول : اعلم امير المؤمنين اني تصدّقت بعينيّ ، جميعاً ، على الباذنجان» ...

وعندنا : التفّاح ، الذي يُخطُّ عليه بالظفر الف علامة ، والف ميعاد !

وهو الطيّب الرَّوح ! حتى لقد احبّ (ابو عليّ الفارسيّ) ، على ما في (الخزانة)، ان يجمع له بين طيب الاسم وطيب الجسم ، ولو بالقلب والإبدال ! مخالفاً في ذلك اهل اللغة . قال في (الخزانة) ، نقلاً عن (سَمَر السُّمار ، في ليالي الأقمار ، في اوصاف ثمار سائر الأشجار ، ذوات الفواكه والثمار) : « فقال — : اخطأ من جعل التاء اصليّة . وبابه ان يكون في (ف و ح) . فيكون اصله من الفُوح ، بضمّ الفاء ، وهي الرائحة الطيّبة .

فقُلبت فاؤه عيناً وعينه فاءً، فصار عُفَّالاً وُفاّحاً، فأبدلوا من الواو تاءً، فقالوا : تفاح...»

وعندنا : الخيار الذي لا تُقوّس واحدته، كما تُقوّس واحدة القثّاء ـ على انه مضرب المثل في النُّعومة والطَّراوة ! وهو، في باب التّبريد والتّطفئة : حاجة، وفي باب القضم والخضم : لذّة.

والقثّاء، وهو الأهلّة الخضر، التي تنعطف وتنحني في يدك.

والرّشاد، ذو الحرافة (بل انّ قولك : شيءٌ حرّيف، مأخوذ من الحُرف، الذي هو حَبُّ الرّشاد بعينهِ!)، فكأنه يشحذ اللّسان لمناعم المائدة.

والتُّوث، بالثّاء، (التُّوت الأحمر) : وهو سهولة وزلاقة في فم الألثغ، بالثّاء، وفي فمك ايضاً...

والعنب الأسود، الذي تأكله وتتلذّذ به، دون ان تعرف اسمه في العربيّ... وهو الوَيْن...

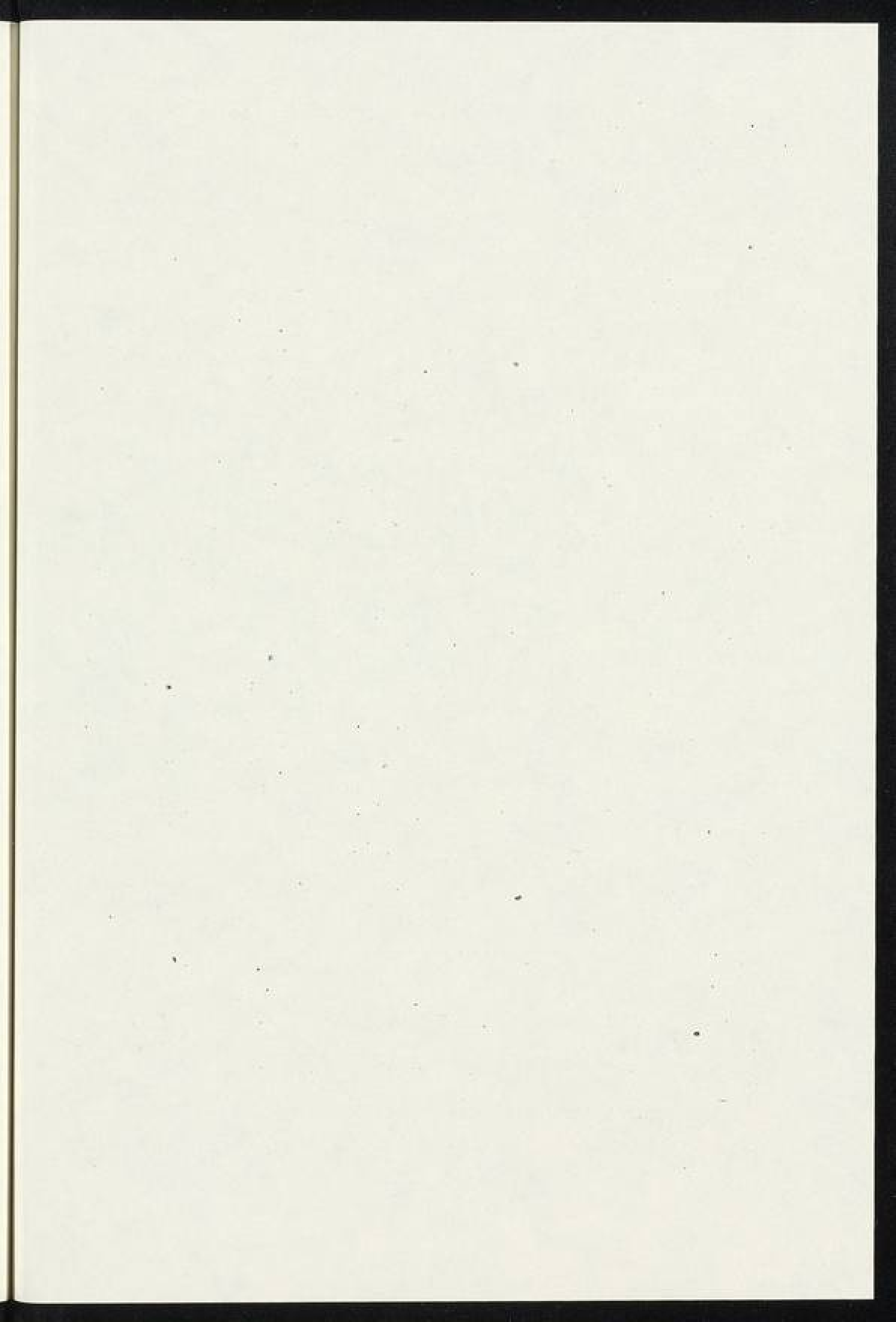
والعسلوج، وهو ما لان واخضرّ من عروق الكرم، اوّل ما ينبت ـ فوارحمتا لهذا المسمّى من هذا الاسم !

والسُّمّاق الأحمر الذي يزدحم بخانق وقراطق ، والشّيح الذي يذكّرك (ابن الفارض) ، والزّعرور الذي يُقتحم الشّوك في سبيل حبّة منه ...

وثمّ أشياء وأشياء عندنا ، في الجبل ، ليس شيء في الدُّنيا ألذّ من عدّها ، ولا أحلى ! ولكنّ الصّحائف ، هاهنا ، قليلة ، والعدّ طويل .

الكتاب الثاني

بذور ريفية (الزارع في المدينة) - وامثال ريفية



بذور ريفية

(الزرع في المدينة)

قضية اللفظ والمعنى

تسأل الزَّهرة الشَّذا — : « ما بالك بعيداً عنّي ؟ » ،
فيقول لها : « انا في قلبك ! » ...

في الفنّ لا يُمسح القلم من شيء ، فلو رُدَّ (شكسبير)
الى الحياة ، لاستأنف النَّظر في (هملت) ، نفسها !

الغموض

طريق السُّهولة ، في الأدب ، تؤدّي الى الوضوح .
— أي الى أوخم العواقب !

شعر الرصافي

صاحبنا (الرّصافي) يلبس الكوفيّة والعقال، ويشرب (الويسكي) ...

توزيع القسط بين المعنى والمبنى

يتعب اللّفظ حيث يستريح المعنى.

انتَ وحدك، أيّها المبتدع، لا تقلّد احداً!

قضيّة الالهام، في الفنّ، اخت قضيّة الخوارق، في الديّانة.

كانت الوقعة ، في الجيل الماضي ، حامية مستحرة ، حقاً : (شوقي) يريد ان يجعل النغم فكرة ، و (خليل مطران) يريد ان يجعل الفكرة نغماً . . .

جماعة (القـاهرة) يظنّون انّ الصدق في الفنّ ، معناه قول الحقيقة !

يُقال للتقليد أعمى ، لأنه لا يرى انّ الابتداع أيسر من الاتّباع . . .

الصنيع الفنّيّ تارةً يقوم بجملته ، لا بتفاريقه ، وتارةً بتفاريقه ، لا بجملته — وهذا اسمه : سرُّ الفنّ !

حفظ النصاب

قضيَّة التوفيق بين الجملة والتفاصيل هي شغل (فاليري) الشاغل . لذلك يقال في اوروبة ، اليوم ، ان (جيرالدي) أوضح من (فاليري) !

النقد

ــ معظم النَّقد يقوم على الذَّوق ، لذلك لا يُنتفع بالنَّقد !

ــ ليست الجرأة من لزوم النَّقد ، فالنَّقد، في الجملة، تدليل على ذوق للنَّاقد ، لا علاقة له بأذواق الآخرين .

اما قضيَّة (المقاييس) فهي من أفكه ما يكون !!

فنُّ القصَّة ، عندنا في العربيَّة ، مسكين جداً : فهو لا يزال ينظر الى الحوادث .

مادة الادب

(فرجيل) ــ عجباً (لفرجيل) وجملة شأنه : انه كان فلاحاً لاتينياً ، يعرف كيف يستلقي على ظهره في اليوم الشامس ، والصَّحو الأزرق ، ثمَّ يأخذ في عدّ اسماء النجوم ، وسرد الخرافات القديمة ، عن مسير الغمام ، وعدَان الهواء ، وفي قصّ حكايات الحبّ ، عن رعيان الضواحي بين (آند) و (مانتو) ــ فعجباً له ، وقصاراه عند ذلك ، كيف يغدو ، في الشعر ، نادرة الفلك !

(فرجيل) ايضاً ــ وانَّ الذين ترجموا (لفرجيل) ، وأخرجوا تلك السّيرة الوادعة ، قد أجمعوا على انه كان ، في الصّبا الأوّل ، راعياً للضأن ، يهبط بالقطيع اعماق الحراج ، من ريف (آند) ، أو يدور به حفاف الأودية ، نافخاً له في الشَّبّابة ، مغنّياً ، راقصاً ، خفيف القدم ، وانه ظلّ ، طوال عمره ، يتغنى بالشطوط ، والخلجان ، وسلاسل الجبال ــ على طول الخطّ الايطاليّ الأخضر ، وانَّ ذلك القلم ، الذي كان في يده ، على فقدان الثقوب السبعة ،

وحزّ النغم ، لم يكن الاّ تلك القصبة ، بعينها ، لا أقلّ ولا اكثر !

منفلوطية ...

(في مخاطبة الأمر الصعب)

يا خاتماً لا يخرج من اصبع ، وقفلاً لا ينفتح ، وبَكرةً لاتدور ، وحبلاً لا يجري ، ووتَراً لاينسرح ، وغزلاً لا يتخلص ، وعُوداً لا يستقيم ... الى آخره !

قصة البلبل

كان في بعض الحدائق بلبل ينبري في مواسم الصّياح على الرّبيع ، فلا يزال بالحديقة حتى ترتجّ اعطافها من الفصاحة ! فجاءت اليه اشجار الحديقة ، ذات مرّة ، وقالت له :

ـ تقضي العمر في التغنّي لنا ! فجئنا ، الآن ، نشكر لك هذا الغناء الطويل ، وندعو الله ان يحفظ حنجرتك

من البحّة ...

فلما كان الربيع القابل ، انقطع البلبل عن الغناء ، وفرغ قلب الحديقة من الهوى ، في غياب الفصاحة !

(قال فؤاد افندي) :

ــ هذا ، في لغة البلابل ، اسمه: التّغريد للتّغريد ...

الادب والطبيعة

(الآنسة ميرايّ ...) ــ (ميرايّ) في ظنّي ، وهي الغادة التي اطلق (ميسترال) اسمها على قصيدته الكبرى لم تكن بنت ذلك الفلّاح (رامون) ، من مقاطعة (كرو) ، كما يزعمها ، بل هي واحدة من بنات (ميانّ) اللّاتي مررنَ تحت شبابيك بيته ، ايام العناقيد والقطاف ، الف مرّة ، يتهادين بالغلائل المذيّلة ، والعقد الزرق الغارزة في ضفائر الشعر ، كأجنحة الحمائم ! فنقل (ميسترال) ، الى قصيدته ، واحدة من تلك (الميانيات) ، بغلالتها ، وعقدتها . من الطريق الى الصحيفة ! ــ أي من الطبيعة الى الأدب . وعاشت (ميرايّ) في القصيدة ، كما لو

كانت في بيت ابيها !!

وما على (ميسترال) ، بعد ذلك ، اذ يشكّ في عقدتها الزّرقاء ، طرفاً من قبّعته (البروفنسية)، المتطاولة الأطراف ، لتغدو (ميرايّ) وهي من بنات فكره ايضاً ...

الوردة الحمراء

(رؤوس اقلام لكتابة قصّة اسمها : الوردة الحمراء)

وهي قصّة نويتُ أن اكتبها على الحبّ الذي يكمل بالموت ، واجعلها هديّة عربيّة الى روح راوية الانكليز (اوسكار وايلد) ، صاحب (البلبل والوردة) ، التي كتبها على بطلان الحبّ ، وكونه ، من اساسه ، حمقاً وغباوة . واني لا اسوق اسم (وايلد) ، في صدر هذه القصّة ، الاّ رغبة التّشريف لها بذكر اسمه العظيم ، وقصد التّلميح الى انّ هذا الادب العربيّ لا يضيق — والحمد لله — عن الالتفات الى هذه الطرائق ، في بابَي المغزى والتّعبير ، عند كتّاب اوروبّة .

وتدور نقطة الكلام ، في القصّة ، على تحطيم القلب في الحبّ ، ليس إلّا . فاقف من ذلك الموضوع الكبير بالعتبة ! اذ انّ المجال لا يقتضي اكثر من هذا ، فلا اعرّج على عظة ، ولا اقف عند مغزى ، ولا اعدل الى قضيّة ، من القضايا ، في علم النّفس — كما يتسارع الى ذهن القارئ ، من انه لا بدّ لي أن اطرق الى ذلك بأدنى سبب ... بل اسوق الحوادث سوقاً خالياً عن أية ملاحظة . فلست ، هاهنا ، في عرض الكلام على نوع من الحبّ دون نوع ، ولا على هبوط الطبع في بعض تلك الانواع ، وانتكاس الذّهن فيه ، ولا على موضعه من المشاكلة ، ومكانه من الغريزة ، والعادة ، ولا على علاقته بالجمال ، واتّصاله بالشهوة ، وتذرُّعه الى اللذّة بمختلف الذرائع — فان هذه الدقائق العلميّة أحقّ ان تُفرد بالتأليف ، لا ان يؤتى بها في سياق قصّة تقوم على تفتّت القلب ، في بعض وساوسه في الجمال .

وانّ للقارئ ، بعد هذا ، ان يفتل لنفسه ، في تضاعيف القصّة ، ما يحلو له من حقيقة يتوضّحها ، او عبرة يستبينها .

فانّ الأمر ، في كلّ ذلك ، موكول اليه ، ولا دخل فيه لهذا الكاتب . ولا يكون للقارئ ، طبعاً ، في هذه الحوادث ، أن يكلِّف صاحبه الكاتب اثبات صحّتها ، بل يكون عليه كلّما حكّ في صدره منها شيء ، أن يتذكّر انّ الصدق ، في الفنّ ، صدقان : واحد لا يُستطاع تصديقه ، وآخر لا يُستطاع تكذيبه !! (وهاهنا سأضرع الى القارئ أن يصدّقني في هذا ...) .

وسأذكر في مبدإ القصّة انّ حوادثها وقعت قبل عهد الناس بالورد الأحمر ! يوم لم يكن لهم ، بعد ، إلا ورد ابيض ، لا لون له ، او ورد اصفر ، في لون شحوب العشق ... وانّ الدنيا ، على الحقيقة ، مدينة لبلبل القصّة ، وهو الذي ضرّج الورد ، وزيّن بالخجل الأحمر حواشي الحدائق ، واصبح ، بفضله ، في كلّ وادٍ ، أرج ، وملاحة ، واوراق تقلق من ايسر اللّمس ! وانه يكون من العبث ان يسألنا القارئ أن نسمّي له ذلك البلبل الكريم ، الذي جاد على الناس بنعمة الورد الأحمر ، فلا هذه الكتب ، التي بين ايدينا ، تشيد باسمه ، ولا اهل الأخبار

يشدون بذكره . وأضيف الى ذلك انهـا تكون عجبة من العجب، اذ يُطنطن في الخافقين باسم الذي أتحف الناس بزهرة الحياة ... ثمّ اذكر ان كلّ ما وصل الينـا ، من صفة حاله ، انه كان يقيم باحدى الحدائق البعيدة ، وانه كان حلو الرّيش ، حلو الصّوت والألفة في نادي البلابل . (وسأرجو من القارئ، في هذا الموضع ، أن لا يصدّق انه كان بصاحبنا انفراد في خصلة ، أو تميّز في طبع — فهو كلام لا يرتكز على سند، بل هو من محدثات جماعة ، لا يستطيبون القصص ، إلّا اذا اقترنت بخبر عجيب) .

ثمّ آخذ في سرد القصة، فأذكر انه في بعض ليـالي القمراء ، اذ تمطر السماء فضّة سماويّة ، وترقص الحـدائق من غنىً وسعادة ، خرج بلبل القصّة الى شجرة العنّاب ، على عادته ، وأقام يتطلّع ، من خـلال الورق ... (ويا للعنّاب من ثمر أحمر ، يغدو تحت المنقار الأحمر ، فاذا هو ، في اللّون ، والتّدوير ، واللّطافة ، قد خُلق ليكون مأدبة للبلبل ! وناهيك بحلاوته ، وكلّ نقرة منها بمذاق) . الا

انّ البلبل كان في تلك الليلة مشغول القلب عن حبوب الياقوت ... ومن أحقّ من البلبل ، في دولة القمر ، باهتزاز الالمعيّة ، ونشاط الضلوع ؟! وانه بينما كان ينظر الى جوار الشَّجرة، يتفقَّدحال الزَّهر في وقوع النّدى، اذا حركة ، في زاوية من الحديقة لم يدر كما الضّوء ، عقبها هتاف بلبل ، فينصت لذلك، ويدير عينيه ناحية الزاوية، فينقطع الهتاف .

وانّ البلابل أجناس ، والتغريد ألسن ، كلّ جنس بلسان . وانّ الحدائق أوطان ، كلّ حديقة بجماعة . وانّ البلبل الذي هتف هتافه ، في الزاوية ، كان غريب الرّيش عن الحديقة ، الآنَ صوته الحبيب قد أقام صاحبنا، على الغصن، وأقعده ، بذلك السائغ الرّقيق، الذي يسيل في السَّمع ويصبّ في الرّوح ــ وإن اعوزته الترجمة ! وانه في حبّ البلابل ، كما هي الحال في حبّ البشر : على القلب المعوّل ! والقلب يفهم من غمزة حاجب ، فكيف ظنّك بصياح ومناداة ؟..

ثمّ يكون ، في القصّة ، انّ بلبل العنّابة يردّ على بلبل

الزّاوية بأعذب ما في حلقه من نغمات الهوى . ولستُ ، انا ، من الذين وقفوا على لغات البلابل ، وأحاطوا بهاتيك المناغاة ، التي ترقص لهـا الاغصان ، ويخفق الورَق ، ليكون للقـارئ أن يطالبني بحكاية ما بثّه بلبل العنّابة ، في جوابه ، من تلقٍ بالانس ، وبوح بالهوى ، وتشوّق الى الاتّصال ، الى آخر هذه الأغنيَة ... الّا انه لا بدَّ لي من أن أذكر ، هاهنا ، في القصَّة ـ وذلك شفآء لغلّة القارئ ـ انَّ البلبل قال لصاحبه ، في جملة ما تنغَّم به : انَّ الرّيش في جناحيه رجف من هوى ، وانَّ منقاره طري من رقّة ، وحنجرته تفتَّحت لألف اغنيَّة ، وانَّ طرب الدنيا حُمل اليه في صيحة ، وحلاها سِيقت اليه ، على جناح ... ثمَّ يصمت بلبل الزّاوية ، في مكانه ، كأنه لا يفهم بهـذه اللّغة ، التي رَجت ، من فصاحتها ، شجرة العنّاب . فيخطر للبلبل العاشق انه قد عرَّج ، في بعض مواسم الخضرة ، على مرج بعيد ، في بعض الأطراف ، وحفظ عن بـلابله لفظات ، من لغتها ، لا تزال منطبعـة في حنجرته ، وانَّ صاحبه ، هذا ، قد يكون من ذلك المرج ، فيخاطبـه ،

في تلك اللفظات القليلة ، ببعض مراده ، مؤلفاً بينها بزفرة من هنا ، وزفرة من هنا ــ على أن يفصح ، بتمثيله للمعاني ، عمّا قد عجز عن تأديته باللفظ ! ولكنّ ذلك ، كلّه ، يكون عبثاً . فبلبل الزاوية ، في ما يجب أن يظهر من سياق الكلام، لا يفهم حتى من الزّفرات...

فينطلق المتيّم يردّد له من (النَّوى) ــ وهي النّغمة التي يعرفها كلّ من ابتُلي بحسن... فلا يكون عليّ في القصّة ، همّ التّعريف الموسيقيّ بها ! ــ قصيدة على الغزل ، ذات غصص ، ولوعات ، وحُرَق ، وقد أخذها ، في أحد الغدران المجاورة ، عن بلبل يزعم انها أعذب من نواح الحِمام ! وانها طالما جُرّبت في ترقيق الجوانح ،وتمهيد القلوب ، فأتت بأوفى النتائج . أمّا بلبل الزّاوية فيصغي الى ذلك الغزل الشّجيّ ، ثمّ لا يجيب بطائل ، كأن ضمير المخاطَب ، الذي في القصيدة ، لا يعود اليه !

والحبّ لا ينثني في قصّة ، فكيف يصحّ ان ينثني في هذه القصّة ؟! والحاجة في الحبّ تسلك ألف سبيل ، وهذا من أدنى العلم ، عند القارئ ، فلا ينبغي أن أطيل

فيه الكلام ، بل أذكر ، من فوري ، ان بلبـل العنّابة رأى ، بعد ذلك ، أن يدبّ الى الزّاويـة ، ويجلس من صاحبـه منظر العين ، عسى أن يكون قرب الدّار ، في الحبّ ، خيراً من البعد ــ كما قـد قيل ، وانّ منظر البلبل ، وهو يتنقّل من غصنٍ الى غصن ، في طريقه الى منزل الحبيب ، كان أشهى منظر ! وانه في اثناء ذلـك ، كان بلبل الزّاوية قـد فارق غصنه ، وتوارى في عـالم الهجران ...

ثمّ يرى بلبل العنّابة ، وهو في الزاويـة ، انه كان للجمال ، هناك ، هنيهة ، وتولّت ! ! وانه لم يبقَ له ، بعد الحبيب ، الذي طار من اليد ، الا ان يشمّ ريح الريش ، على الورق ... فالبلبـل العاشق ، كالآدميّ العاشق ، يؤخذ ، في جميع مقامات الحبّ ، من أنفـه ! وسرعان ، ما تخلو الحديقة ، في عينه ، من غبطة ، وبشر ، ومن نور ينقط من الأغصان ! فينطفئ القمر ، ويخلع اللّيل ثوب الحـلاوة ، ويغرق البلبل في بحر اللّوعة ، على الجمـال المحتجب بالغياب ...

وفي هذا الموضع من القصَّة ، يكون القارئ قـد تشبَّع من غرض الكلام ، ويكون البلبـل قد تهالك على الورَق ، من غلبة اللَّوعة ، فضلاً عن مكابدة السهر ، وجهاد الحنجرة ، طوال اللَّيل ، فاقول : ثمَّ طلع الصَّباح ، واذا الشجرة ، التي عليها البلبل ، شجرة ورد أبيـض . فوقع البلبل على شوكة ؛ من شوكها ، وفاض دمه ، وصبغ بياض الورد . ثمَّ أقول : يومئـذٍ ، نبتَ الورد الأحمر في الدّنيا . . .

امثال ريفية

الصنيع الفنيّ

للقول انّ ما يقع في الحياة ، يقع في الأدب :

ــ هيهات ، لا يسقط الطَّير من الجوّ مشوياً !

أو تقول :

ــ يضرب المعول الأرض الف مرّة ، قبل أن تخرج نبتة خضراء .

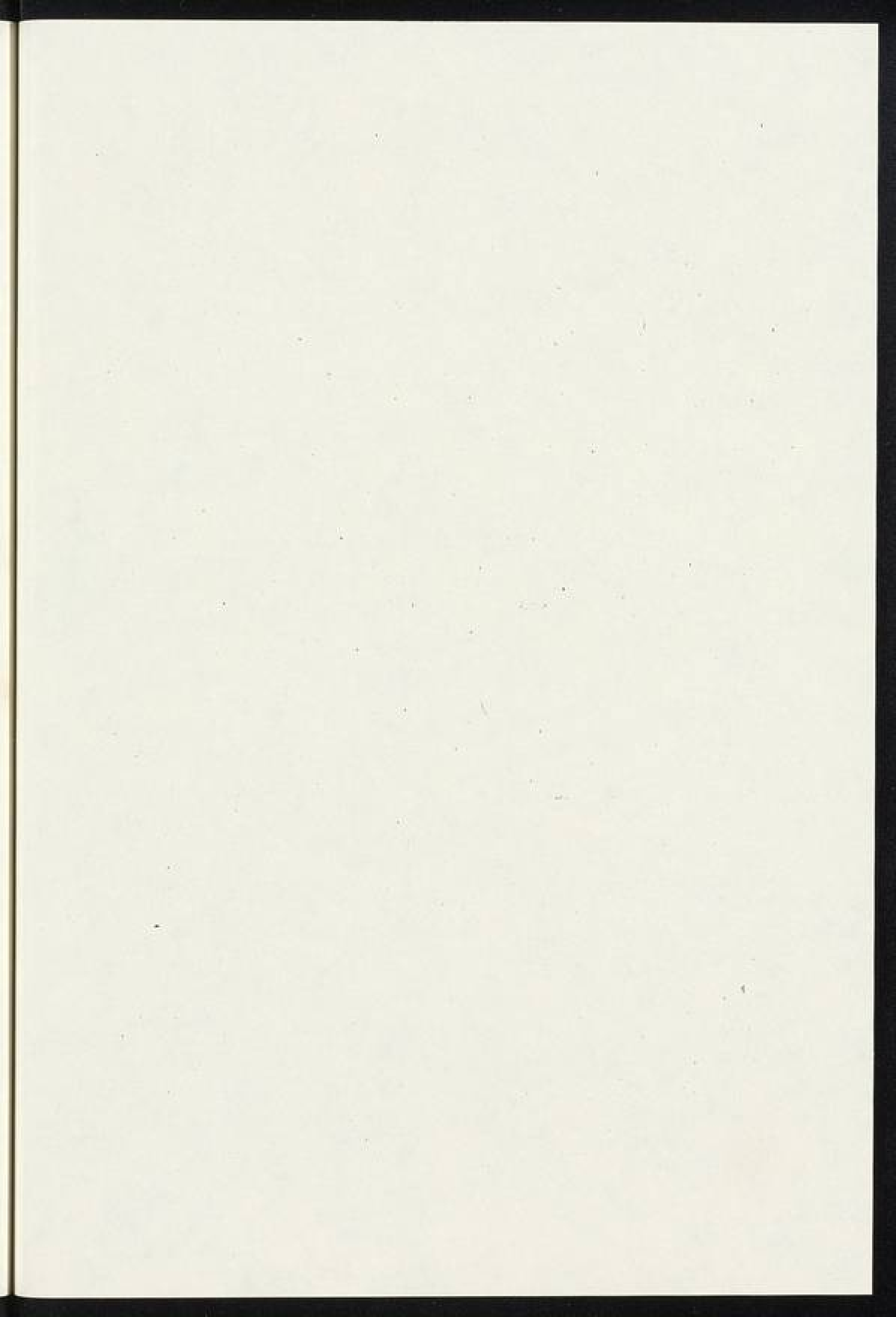
الاجيال في الادب

للقول انّ ما يقع في الأدب ، لا يقع في الحياة :

ـــ الهرّ لا يأكل آباءه ، بل يأكل بنيه !

الكتاب الثالث

في بيت فؤاد افندي



في بيت فؤاد افندي

الفنّ والطبيعة

على حائط الرّواق ، قبالة المقعد ، صوَّر لنا بعض الدهّانين زهرةً من الورد الأحمر ، لا ينقصها الّا العبَق ! فنحن من وردتنا الحمراء ، في غنىً عن الرِّقة ، والملاحة ، والخجل الأحمر ، حتى يذهب الشتآء ، وتجيء ايام الورد ، فندير وجوهنا عن ربيع الحائط ، ونقبل على تلك الشَّجرات الصغيرة ، المبثوثة في زاوية الحديقة ، وهي من كلّ لون وأرج !

ويا للورد الأحمر ، يا (لحاتم) الطّيّب ، من مضيف ، تنزل عليه ، فيبشّ وجهه ، وتترنَّح أعطافه ، ويجود عليك من مادّة حياته ، بما يملأُ يديك ، واثوابك ، ومكانك ! — فليتّقِ اللهَ سائلُه . . .

وعلى شجرات الورد ، يلقاك ألـف فم مدوّر !!
كأنّ الخجل قد خلع شيمته ، وعاف انكماشه . فهو يجمع ،
أطرافه ، ويزمّها ، ليلقي بنفسه عـلى شفتيك ، في شمّة
عميقة ، مستطيلة — الله اعلم ما أواخرها !

على انّ زهرة الورد الحمرآء ، كأخواتهـا زهرات
الورد الأحمر ، في اللون ، والشّكل ، والعبق . ومـن
هنا يدبّ الى نفسك ، من فرط المشاكلة ، شيء كالملل ،
وتلحظ انّ الزّهرة الحبيبة ، التي صبّت روحها بين يديك ،
لها ألف أخت من مثلها ، تلقي بنفسها بين يدي غيرك !!

اما وردة الدهّان ، على حائط رواقنا ، فهي الفريدة ،
في ملك الله ، لا تشبهها وردة . . .

اللذة والفائدة

كان عندنا ، في الحديقـة ، بين البركة والسّياج ،
دالية باوراق ، وعناقيد ، وظـلال . وكنّا ، في ساعات
العشيّ ، نفيء اليها ، ونغدو من تحتها — وقد احمرّت

السماء ، في مثل قبة خضراء ، تنطح قبة حمراء ...

وكانت تجيء ايام القطاف ، فتمتلئ عيوننا ، وافواهنا ، واكفنا ، وخوابي الزبيب ، وأوعية الخمر ! كرم دافق ، ونعمة متصلة : فمن الأفياء الى العناقيد ، ومن العناقيد الى الزبيب ، ومن الزبيب الى قناني الفرح !

ولقد ظل بنا واحد ، من اصحابنا ، من الذين يزعمون ان فن الحدائق ، اليوم ، ينظر الى اشجار الزينة ، لا الى اشجار الجنى ، حتى حملنا على قلع الدالية المباركة ، فاقتلعناها — كرامة لعينيه ! — من أصولها ، واثبتنا ، في موضعها ، شجرة من اللبلاب العالي ، الذي يحب صاحبنا صنفه الطري ، الناعم ، اللطيف التعريج والالتفاف .

فجرى ، بعد ذلك ، ان العام ما كاد يدرج على اللبلابة الحلوة ، حتى اخضر بها البيت ، من البركة الى الرواق . ولكن اللبلاب — على امتداده وإغصانه — رقيق الظل ، لا يقي من البلالة ، في القمراء ، ولا يكن من الحر ، في اليوم الشامس . فبتنا ننظر الى القمر من

الشَّبابيك ، ونلوذ في احتدام القيظ بالرّواق !!

وياسيّدي: انَّ اللّبلاب للزّينة ،ليس غيرُ! فصفرت من العنب ايدينـا ، وفرغت من الزّبيب الخوابي ، و كدنا نموت عطشاً الى مجّة من قنّينة ...

مرثية ريفية

(في تأبين دالية العنب)

يا أبركَ حمل ، عـلى ألطف ساق! هبط حظّك ، في الدّنيا ، الى الأرض ، وقام حـظّ اللّبلاب ... ولم يشفع بسمائك المرفوعة ، انها كالسماء ، تعطي من فوق، وتجود بلا حساب ، وانها تنزل العصافير عـلى أطيب مائدة ، وتبلّ القلوب باعذب ماء !!

كلّ ثمر ، في الفم ، يبلغ طعمه حيث يبلـغ طعم الإدام ، ثمّ يقـف ــ عدا ثمارك! فهي التي تنفـذ الى الى الأحشاء ، وتغلغل وراء المشاعر . وكلّ ظلّ ، مداه لا يتجاوز العين ــ عدا ظلالك! فهي التي تمدّ الى القلب ،

فتخضر الأشواق، وتدق البشائر، لزفاف بنتك الحلوة...
فيا خير ام، لخير بنت: أسفاً عليكِ!

فلسفة يونانية

قلتُ للخادم، البارحة، تحت اللبلابة:
ــ أفٍ لهذا اللبلاب! يملأ الحديقة، ويكاد يدخل البيت علينا، ويلحق بنا حيث ندور، وهو بعد هذا لا يستطيع ان يجود لنا بنفحة طيبة!
فقالت الخادم:
ــ ليت سيدي يهوّن على نفسه! فقد يكون، هو، الذي لا يستطيع الشمّ...

بين القديم والحديث

من كان يحسب ان الزمان ليس كلّ يوم في نقص، وانّ الدنيا ليست على آخرها، فليأتنا في أخريات هذا الشتاء، يسأل قطتنا (عنبرة)، التي حفيت من الأيام

براثنها ، وكلّت أنيابها !

(فعنبرة) ترى الدّنيا مقلوبة ـــ وياسبحان الله ! ـــ فاين هذه الايام الغائمة ، التي تطبق على القلب ، من ايام ماضية ، عفا الله عنها ! ذات ضيآء ، ودفء ، وشمس تتضاحك فوق خدّ الصّبح ، وكنف ناعم ، يجلب النّعاس من آخر الدّنيا ...

وعبثاً نذكر (لعنبرة) انّ الوقت ليس بصيف ، وانّ قرص الشَّمس لم تخرم الفئران أطرافه ... بل انه هو السَّالم الباقي الى ما يشآء الله ! (فعنبرة) لا تعرف قاعدة ، واحدة ، من قواعد حركة الفَلَك ، ولا تصدّق ان الشَّمس محطّات ، والشّعاع مواسم . فانزوت عنّا ، في غرفة الموقد ، وركبها الهمّ ، بين كتفيها ، وذابت من البكآء على الماضي ، حتى لتكاد الفأرة تعضّ اذنها ، ولا تبالي ...

وافكه شيء هذا الذي اصاب (عنبرة) ، من فرط تمسّكها برأيها ، وتشدّدها لعنادها . فربّما كرهت شيئاً ، وأحبّت آخر ، لغيرما سبب واقع ، الّا ما تظنّ من جدّة

في ما تكره ، وتقادم في ما تحبّ ! فهي تحبّ ، مثلاً ، حرف (الطّاء) أضعاف ما تحبّ ، انتَ ، قطعة من الجبن الهافت من الهشاشة ... وهي ، كرامةً (للطّاء) ، قد اصبح اسمها قطّة ، لا هرّة ، ولا بسّاً ، ولا سنّوراً ، ومن أجله اصبح شعرها قططاً ، ومشيها مشي القطوطى ، ومن أجله ، ايضاً ، اصبحت قطعان الفأر تكرّ علينا ، في البيت ، قطائط قطائط ...

الجريد

هذه أوّل ورقة تخرجها شجرة اللّوز ، في الرّبيع الجديد . فيافرح العيون بالكنز الصغير ، المعلّق ! بشير للخير بأنّ الرّبيع وافى ، وعنوان للكتاب الذي تدور ابوابه على الطّراء ، والنداوة ، ورشّ الزهر ، وعلى فنون الصّياح فوق الشجر ... وكأنما البيت ، بهذه الورقة الخضراء ، الصغيرة ، يكاد ، من الفرح ، يهبّ على

قدمين ــ فالأمل وراء الباب !

فعسى أن لا يرزقنا الله ، في هذا السرور الدافق ، من ينغصه علينا ، فيجيء يقول لنا ان الورقة الحبيبة ، طلعت في شجرة اللوز ، حيث طلعت اختها في الربيع الفائت …

عبث النفر

البلبل في حديقتنا ، فالمهرجان قائم : صيحات تتساقط على الورق ، وجناحان يحكّان حلياً بزينة ، ومنقار أحمر يتمسّح بأخضر …

واللّيل ، كما تدري ، قفص الصَّبابات ، وكأنما البلبل ، في الصبح ، قد أفلت من يد اللّيل ، وانبرى يصيح : آهٍ من اللّيل ، وآهٍ على اللّيل !!

… ويزعمون ، بعد هذا ، انّ الحمام أبكى من البلبل !

التربية الاتينية

كلبنا (لولو) من سلالة عريقة في أمة الكلاب. وهو، على التقريب، في مثل حجم الكفّ، أشعر، أشعث، تبرق عيناه الزرقاوان من الفرح والبهج. فهو دائم القفز، بين الرّياش والاثاث، تشهد مخادّ الحرير، في غرفة النوم، بحدّة مزاجه...

و(للولو) زوجة، اسمها: (نينا)، لطيفة الحسّ، بادية الملاسة. لها أذنان، كورقتَي آس، وسنان كحبّتَي لؤلؤ، وفم يضمّ بعضه بعضاً، كالياقوتة، وبراثن — استغفرُ النعومة، فقد قلتُ انها براثن... ألا انّ (نينا) لا تقلّ عن (لولو)، في فوران الطَّبع، قلامة ظفر! فاذا هو رفع في الجوّ ذيلاً، كالسَّهم المريّش، رفعت هي آخر، كريشة العوّاد. ثمّ يزعقان معاً، فيرجّ الزّجاج في النّوافذ! وما تكون ألا طرفات عين، حتى تسكن الفورة، ويتلاقى الزّوجان في زاوية، من حجرة المائدة، على اشهى ما يكون نعيم الزّواج!

ومثلما تشاء انت أن تحيا حياتك ــ كما يُقال عند الفرنسيين ... ــ فكذلك يشاء (لولو) ، وكذلك تشاء (نينا) ! فهما اذا برَد الزمان عن شجرة التفاح ، في حديقتنا ــ وقد أدبر الصيف ، وتفطرت بورق ، من غير مطر ــ خرج الزوجان الى الحديقة ، وقبعا تحت التفاحة ، في ظلّ ذلك الربيع المتوهم ...

وهيهات ان نستطيع ردّهما الينا ، في جهمة الليل ، ألا وقد انتشرت الروائح من المطبخ ــ قُبيل العشاء ، فيرجعان بالسلامة ، في قفز وتسابق . فهما من اهل الخيالات والفنون ، حتى تلوّح الخادم بمكّة المرق ، ومن عشاق الاغصان والماء ، على البركة ، حتى تعج الصحاف !! ولقد تكون الليلة ، من الليالي ، والفصل صيف ، والدنيا قمراء ، وحديقتنا ، من النسيم والضوء ، تقوم وتقعد ، ويكون (لولو) قد تملأ من الأكل ، وانتفخ ــ حتى لتلطمه بطرف يدك ، فكأنك تنقر الدفّ ! فاذا هو يحاسب (نينا) بالأنياب والأظافر ، على مزعة من الخبز ، قد سقطت عن المائدة . وعفاء الله ، في تلك الساعة ، على

القمر ، أطلع أم غاب ، وعلى النسيم أتنفَّس أم أطبــق
فه ... (فلولو) خياليّ ، من الطبقــة الأولى ، لكنّه ذو
اقتصاد ، من الطبقة الأولى ، ايضاً ، يعرف كيف يختزن
في (البنك الأهليّ ...) ، ووراء المطبخ ، كسرة الرّغيف
الأبيض ، لليوم الأسود !

في نيويورك

ما لهذا الجندب ، يثب الى النّقرة ، التي حفرهــا
سقيط المطر ، تحت الرّواق ، ويطفر الى الرّملة المجتمعة ،
عند الحائط ، ثمّ يصعد متسلّقاً حبل الّليف ، متوقّلا في
عيدان السقيفة ، ثمّ يكرّ أدراجه ، ويغيب خلــف
السّياج ؟ !

وها هو ، الآن ، يرجع الينــا ، يقلب رجليه ، من
الكلال والتّعب ، فيقع ، هذه المرّة ، في يدنا !

ويا للبشاعة ! لحم اشبه شيء بالعظم ، وجلد كأنما
كُشط عنه الشّعر ، فكزّ وانقبض ، ووجه فيه طول ،
من غير عرض ، ومنكبان ساقطان ، وفخذان من قلّة

اللحم ، كأنهما انابيب القصب.

فأرمي الجندب ، وراء الجدار ، ثمّ اطلّ انظر ما فعل به الله ، بعد هذه القحمة الشاقة ، فاذا جماهير ، من الجنادب ، يلتفّون حول (مستر) جندب ـ وهو الذي فاز بلقب (بطل الرّكض) ، منذ لحظة ـ ويمسحون وجهه من العرق المتصبّب !!

المجتمع الاميركاني

امّا وقد اتّفق لي ، من غير توقّع ، ان أقاد الى المدينة الاميركانيّة ، القائمة في ظلّ الحائط ، فلأدخلنّ على العالم الجديد ، من أهون سبيل !

ولعلّ أوّل ما يخطر لي ، في المدينة ، أن أبحث عن صاحبنا ، بطل الرّكض ، او أن اهتدي ، في الأقلّ ، الى المصنع الذي يعمل فيه بالمياومة ... ولكنّ ذلك ، في ما أرى ، هو أعسر شيء . فهذه الملايين ، من الخلائق ، التي تصبّ في الشارع ، بتدافع وصمت ، كما يصبّ النهر الحزين ، المنقطع الجلبة ، لا يُستطاع ، معها ، أن

يُتبيّن وجه بطلنا ، من تحت قبعته السوداء ، المكوّرة كالبطّيخة ! فالشارع ، من مبدئه الى منتهاه ، يعجّ بالبطّيخ الأسود ... وهيهات أن تظفر ، خلال هذه الزحمة ، بقبعة متأخرة عن الجري ، تستوقفها ، وتدحرجها بين يديك ، حتى باب المصنع !

ثمّ تنظر الى الحارات ، عسى أن تستدلّ الى بطل الرّكض بقنطرة مرفوعة ، على جاه ساقيه ... فاذا الشّوارع متشاكلة ، والبيوت متشاكلة ، لاينذّ البيت عن لزيقه ، في نمط او لون . فما ظنّك بأن نهتدي الى صاحبك البطل ، ونجرّه اليك من أذنيه ؟! فها هنا عموم ، لا خصوص فيه ، وامّة ولا فرد ، ومدينة ولا بيت ، حتى ليصحّ القول انّهم ، في مجتمع الجنادب ، يثورون دفعة واحدة ، ويهمدون دفعة واحدة ! وانّ الجيل ، منهم ، يُولد معاً ، ويموت معاً ... ولولا خوف المبالغة ، لقلنا : انّ الرجال ، عندهم ، صفّ من هنا ، والنساء ، من هاهنا صفّ يقابلهم ، فيتزاوجون هكذا : كرّة كرّة ، و كرّتين كرّتين ...

ـــ فالحمد لله على انَّ بيتنا خصوصيّ، منفرد في رأس الضيعة!

صرّار الليل

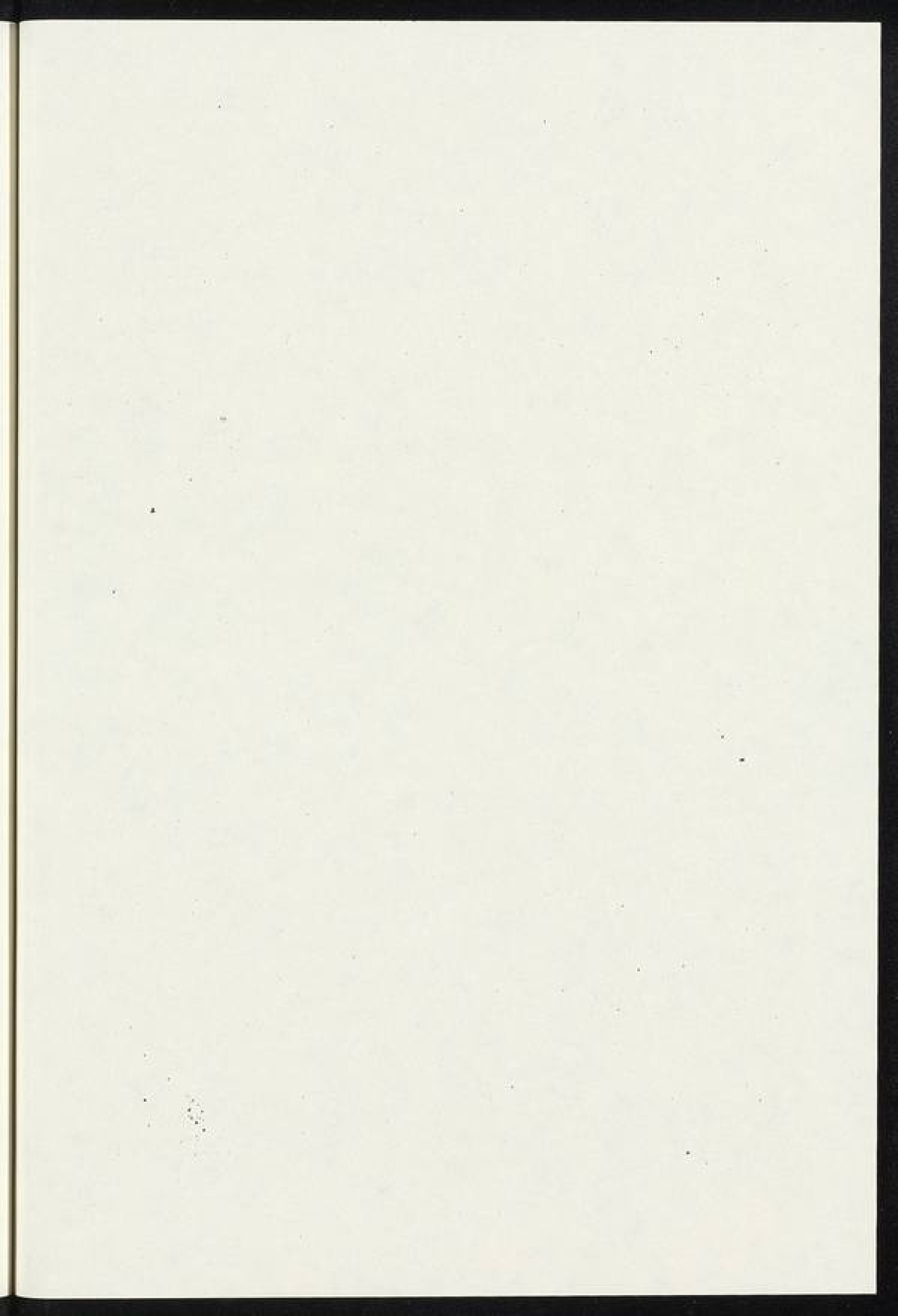
ليلتنا، هذه، ساكنة صافية. فالبيت لاحسّ فيه ـــ بعد ان قبع (لولو) وصاحبته، على باب (البنك الأهليّ ...)، في طمأنينة وصفاء. واشجار الحديقة لا لا يوقظها موقظ من أحلامها الخضر ... ولولا ذلك الصياح الرّقيق، الذي يتعالى عند البِرْكة، لقلنا انّا، والبيت والحديقة، قد غرقنا في حضن الليل، جميعاً!

فاقبلتُ على البِرْكة، انظر الى هذا الكيّاد العنّاد في مجاهدة الصمت، فاذا صرّار اللّيل قد تشبّث بفوّارة الماء، واقام يصيح من فوق ذلك الأوقيانوس العظيم ...

مسكين صرّار اللّيل على حرفة الارتجال!! ففتق لسان، وصبّ ريق، حتى يشهق الصبح، وهو لا يعيا، ولا تستغلق عليه لفظة ـــ فكأنه ليس مثلنا في حاجة مقيمة الى تفتيش الكلام، ومعاودة النّظر.

صرار الليل في الكتاب . . .

(هذه الورقة ، من المفكرة ، سقطت ، وضاعت علينا ، ولم يسلم لنا منها الا العنوان . والقارئ يدرك ، ولا ريب ، مبلغ أسفنا على ذهاب هذه الورقة من يدنا !!) .

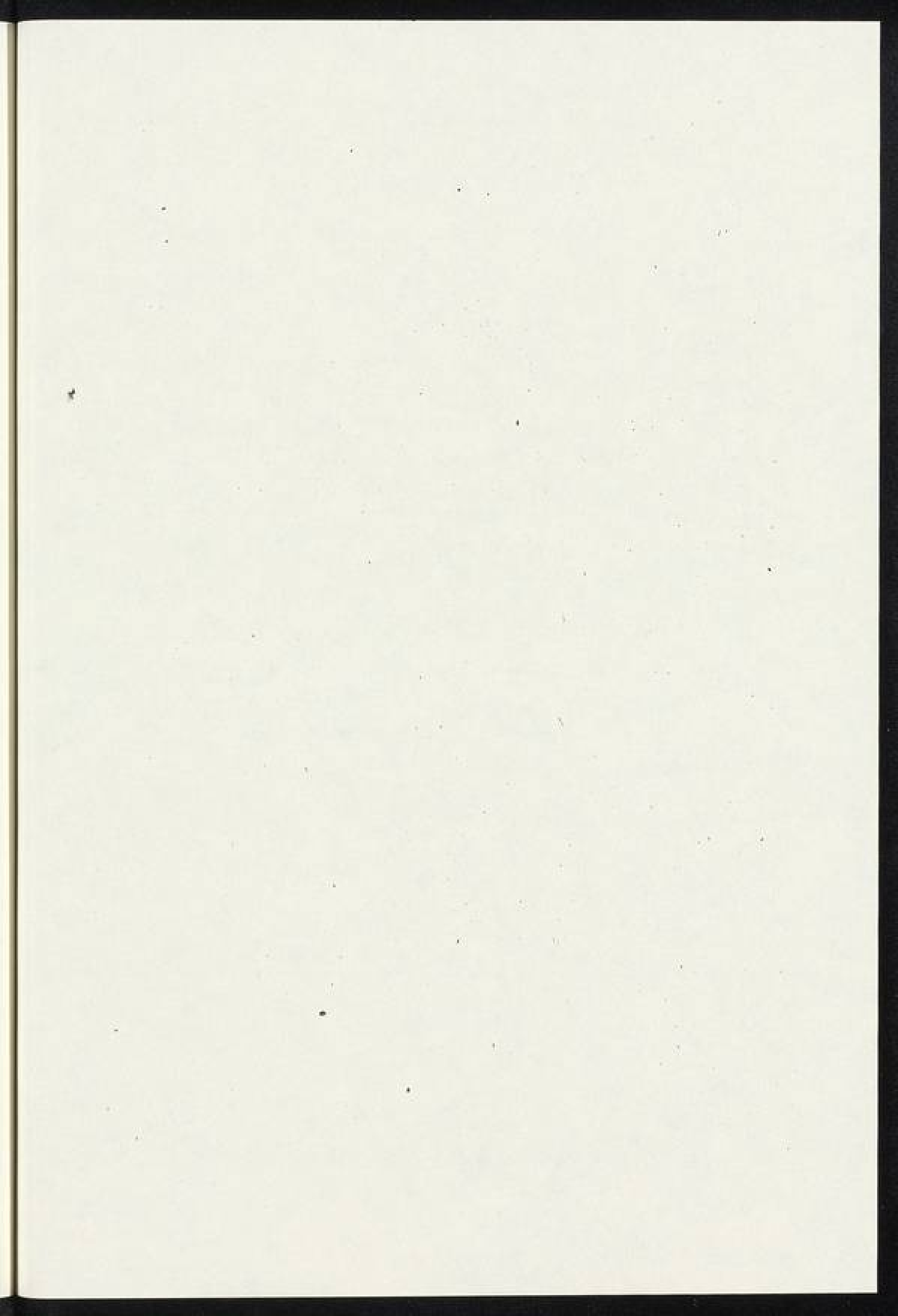


ملحق

اعتلَّ فؤاد افندي ، وهو يكتب (المفكرة) ، فانقطع عن الكتابة اياماً ، عاد بعدها الى معالجة القلم في هذه القصة ، عسى ان يجد ، في موضوعها الشهيّ ، نشاطاً لنفسه ، وجماماً لقريحته ، فكتبها في ستة ايام – كما يرى القارىء – كلّ يوم فقرة ، ومسح قلمه منها في اليوم السابع – متابعة لقصة الخلق ، ولا بدع ، فهو ، ها هنا ، بين دفتي (التوراة) يمرح ! والمثل يقول : (في العرس زمّرْ) .

وقد كان أيسر شيء عليه ، أن يجعل القصة تدور على التين ، مثلاً ، بدل التفاح ، فيطلق الكلام في تينة ناضجة ، ناضحة ، يتقطر عسلها ويلتمع ، في الشمس ، كصغار اللؤلؤ . . . وتكون بها الصورة اتمّ ، والمعنى اجهد ، ولكنه ، في ما احسب ، قد ابى ان يخالف كاتب (التوراة) ، في شيء ، حذرَ الوقوع في المحدثات والاباطيل !

وهذه القصة لا تتصل بالغرض الذي صدرت عنه فصول (المفكرة) – بل تكاد لا تومىء اليه ، ولكنها قد كتبت وإياها في مناهج متقاربة ، وخواطر ملتئمة ، لذلك ألحقت بالكتاب .



قصة الفردوس الارضي

(الاثنين)

نحن في هذا المقام، من حوادث القصَّة، حيث لا تبرح الدنيا عذراء : عهدها بالضوء ، واللّون ، والصوت ، من خمسة ايام ، فهي تلمع بالبهج الجديد، من كلّ جانب !

فمن رأى زرقة الجلد ، على حائط الفردوس ، رأى زرقة غير هذه ! كانت الألوان لم يختلف عليها الزمن ، بعد ، لم تبهت ، فهي عميقة ، مائجة ، نديّة اللّمعان... وكيف يُقال عن صياح الطّير ، في بعض اكناف الفردوس ؟ افتحسب ، انه كان بصيحة البلبل ، مثلاً ، بحّة هذا اليوم القائم ـ وهو آخر الزمن ؟ ! كان جدّ البلابل اصحّ شطوحاً من سلالته ، وأمتع غنّة ، وألذّ مقطعاً وقراراً . فاذا أطلق صوته على نهر الجنّة ، تساقط على الموج فرح ، وطنين ناعم ، من مثل ما يكون

لأسلاك الفضَّة ، وهي تقع على الزّجاج !

وكان البلبل ، في الفردوس ، أولع مايكون بالنسيم — يحبّ صحبته ، والدّوران معه ، حيث يدور ! فالنسيم لم يكن في هذه الطلاقة ، التي تعهدها له اليوم . كان لم يمرن ، بعد ، على الكرّ والهبوب ... فيركب البلبل بين منكبَي النسيم ، ويدلّي قدميه ، كما تُركب الدابّة اللّينة !!

اما ضواري الوحش فليست بضوارٍ ! — ونحن لا نزال قبل العهد بيوم التفاحة ، وشرّه المستطير — فالأسد غير هصور ، والذئب غير عاوٍ ، وحمار الوحش حمار باربع آذان ، ككلّ الحمير ! لا يـذعر ، ولا يضرب في الجوّ ذيلًا ، كأنه الشّيحة في طرفها نار ... وكذلك قل في بقيّة الحيوان ، فهي من آنس ما تكون : تتلاقى في الفي ، او على الماء ، فتشغلها موجة تربد ، او خيط من الضياء ، يتقطّع بين الغصون ! او تنام هنيئاً ، فكأنها تنتظر يوم التفاحة ، ليكون لها شغل في هذه الدنيا . . واين عينك ، يومئذٍ ، فترى الأسد ، نفسه ! فانّ ظفره ناعم ، لطيـف الحرف ، لو غرز في خدّ امّك حوآء ، قبـل ان عضّت

التفاحة ، لما أحسّت الغرز !

ولعلّ امتع مشاهد الجنَّة : الّيل ! فاذا انحدرت الشمس ، وسقط قرصها في الموج ، وانطفأت الحمرة ، غشي الجنَّة نعيم اسود ، رطب ، اسمه : الليل ...

وليل عدن لون آخر للنعيم ، بعد لون النهار ، جعله الله قاتماً ، هكذا ، مخافة أن يسأم اهل الجنّة النهار ، ودوام البياض ــ ملهاة من نعيم أسود ، عن نعيم أبيض !! فلطالما وقف البلبل على الغصن ، في العشيّة ــ وقد دار عدناً ، وتقلّب في كلّ أخضر ، وهو يترقّب مطلع ذلك القرص الأبيض ، الذي يجيء في السواد ، فيفضح كلّ ظلّ ...

(الثلاثاء)

وكان الله ، سبحانه ، في عدن ، يرفع الكلفة . كان يمرّ ببعض طرق الجنَّة ، وهو يتفقَّد خلقه ، ويتعهّد بستانه ، فيلحق به كلّ من رآه من طوائف الحيوان ، فلا ينتهر الجماعة ، ولا يتنحّى عن طريقها ، بل يهشّ لأولئك

الفضوليّين الحمقى، ويظلّ في مضيّه. ولم تكن نزلته على الفردوس كلّ مرّة، في طبول، وابواق، وصهيل خيل، وقعقعة سلاح وزرَد، ممّا يكون للجبروت السماويّ، في المظهر العظيم، فقد كان، سبحانه، لا يبرح من الطين والماء في شغل شاغل ـــ لم يجئ يوم استراحته، بعد!

ولقد فتن، سبحانه، في آخر الأمر، تلك العجماوات المسكينة، وشغلها عن الطَّعام، والشَّراب، والمرح في مناكب الجَنّة، فانّ نزوله المتعاقب، ورفعه الكلفة الى غير حدّ، جعلا عندها شيئاً من الكلف به، والتهالك عليه. بل انّ الأمر لم يقف عند هذا القدر! فقد زعموا انّ واحداً، من الثّيران، بلغ به الوَله، وقلّة الجَلَد، حتى ليضرب قرنيه بالجلمد القاسي، لتأخّر الله عن النزلة في بعض الايام، فحطّمهما على صخر في الجَنّة! وقيل انّ حمامة ما زالت تهتف، يومئذٍ، وراء الغمامة، التي تفيّئه، سبحانه، من الشمس، اذا هبط الجَنّة، حتى عاد هتافها بكاءً!

ومن هنا ، في ما يظهر ، نشأ البكاء في طبع الحمام ...

(الأربعاء)

أقبل على الفردوس ، في عشيّة اليوم السادس ، واحد (آخر) ، فتنادت فرق الحيوان ، من كل فجّ ، وهرعت على قائمة وجناح ، وازدحمت على جدّك ، في حلقة يركب بعضها بعضاً ، وطفقت العيون تبحلق ، وتحكّ الأذناب الأذيال ــ بغتة ، هيهات أن يتعلّق بها وصف الواصف !

فمن تراه ذلك الواحد الآخر ! وهو عن كثب ، وتحديد نظر ، كثير المشابه بصاحبه ، ولكنّ للأوّل الف مميّز ، تراه بعينيك ــ لو كنتَ ، ذلك اليوم ، حاضراً تنظر ، ولا يعلقه لسانك ! وعبثاً نفتّش ، الآن ، في هذه المشبّهات البشريّة ، التي لا يقع تحت يدنا غيرها ، كما تعلم ، عمّا يشخّصه لك في الورق ــ فضلاً عن أن يفي بألف

خصيصة الهية...

وابن جدك، المسكين، من صاحب الجنة، وهـو الذي في لحظة، واحدة، يمتطي كتف السحابة، او يمسك بجانب القمر، فيقتلعه، فيمسح وجهه، فيشكه في علياء الجلد!! والذي يجمع أصابع يده، في عنف، ثم يضغط، ثم يفتح قبضته، فاذا ألفاف الشجر تتلاطم، والانهر تربد وترتج عدن، من اطرافها، ذعراً وخشية ـــ ذلك حيث يغضب، تعالى، من تنين، مثلا، قد عاب عـلى السمكة هوانها، وهما يتقلبان في اللجة، او من خفاش زعم، في سمر الذباب، ان وضح النهار يغم قلبه!

أما صاحبنا، هذا، الواقف في بهرة الحلقة، فقـد خذله عقله! ويحق لجدك، الذي زج، تلك الزجـة، في حلقة مضاعفة، من حيوان، وشجر، وأرض، ورقيع، أن يدير عينيه، في ما حوله، وأن يردهما ضائعتين، وان ينقلب، في آخر الأمر، مكدوداً، قد أعيا من الدهش، لا يعرف ـــ بل لا اعرف، انا ابنه، بعد فوات الوهلة بآلاف السنين! ـــ ما هذه الدنيا...

ولكنّ الله ، سبحانه ، وهو اللّطيف ، الشفيق ، لا يترك جدّك في الورطة ـــ وكذلك كان . فلقد جذبه ، من يده ، الى زاوية الكرم ، في الجنّة ، ومشى آدم ، من خلفه ، ينقل قدميه ، و كأنه يغرزهما في الأرض ، مـن ثقل ما به ! !

وكان الوقت عشيَّة ، والنور احمر بليلًا ، يتقلّب على العنب ، ويزلق عن أطراف الورَق ، وكانت انفـاس العشيَّة تتهادى على الاشجار المثقلة ، في دفء ولين ــ كأنها رحمة الله ...

وزاوية الكرم ، في الجنَّة ، سماء من عناقيد ، فوق دكك مرتفعة ، تشرف على وادي عدْن ، حيث اعشاش الطير ، وملاعب افراخها ـــ فحوّاءات الطير كنّ قـد قطفن التفّاح ، الف مرّة ، قبل أن تولد جدّتك ، فأطعمت كلّ حوّاء ، منهنّ ، آدمها ، عـلى أهون شيء . لم تقمْ عليهنّ القيامة ، ولا ألّفت القصص !

ولقد ظلّ ، سبحانه ، يجرّ آدم من يده ، حتى شفير الوادي . فأجلسه من بيوت الزّواج ، ومناعم الأكناف ،

عند الطير ، منظر العين ، عسى ان يسوّي عن قلبه . فلما شمّرت الشمس للغروب ، ولبس الشجر الظلّ ، تمشّى في عدن ، شيء كالمساء ، او كالوحشة ــ استغفر الجنّة ! وانقبضت رحابة الافق . فاذا السماوات تتنادى ، وتنشقّ عن الملك الكبير ، واذا النجوم تريح عن الدّرب ، وتزدحم بالاكتاف ، فيدخل سبحانه ، بيته .

فلما بات آدم وحده ، نظر كيف يصنع في ذلك السواد المخيّم ، فلم يُفتح عليه بشيء ــ اذ انّ حوّاء لم تكن قد أتت ، بعد !

(الخميس)

ثمّ أتت حوّاء ــ واني أسألك أن تعفيني من القول كيف أتت ! فذلك يحرّك الجرح القديم ، في هذه الأضلاع الآدميّة ...

(الجمعة)

وفي ساعة حرّى ، من مثل ساعات القيظ في الدّنيا ، خرجت الحبّة تسعى . وكانت جدّتك ــ عليها السلام ــ قد جرى بينها وبين الحيّة ، في بعض الزوايا ، كلّ مستمع

عن أكلة الأكلات : التفاح !! ــ على انَّ زوجها كان لا يدور في خلده شيء ، مما يُدار عليه ، من حديث ، في الزوايا ! وها هو ذا ، الآن ، على تلعة مرتفعة ، بين حرث مطبَّق ، وفاكهة رغد ، يكرر النَّظر الى أُنثى الحمام ، وهي تأخذ بمنقارها جناح صاحبها ، تشمّ من ريشه ريح الزَّوج ، ولا تطرف عين آدم ! فانَّ شجرة الحرام لم يكن قد ذاق طعمها ، صرفته عنها آلاف الشجر ، من كلّ مذاق ونكهة ، فاذا وقعت عليها عينه ، ذات مرّة ، وهو يعبر الى بعض بحابح النَّعيم ، ذكر الأجاص ، او الكرز ، او الخوخ الأحمر ، الذي يقال له في زماننا : (خدود البنات) ، فيشيح بوجهه ، عن التفاح ، قانعاً بالحلال ، راضياً بالقسمة !

فتقف الحيَّة ، بين يدَي حوّاء ، وتبسط لسانها في حديث شهيّ عن التفاح . كأن تذكر لها مذاقه ، ولذائذه ، وألوانه ، وكيف يُبلغ فيه من القشرة الى اللّباب ، وكيف يُشمّ بمجموع الشمّ ، ويُعضّ عليه بمجموع الفم ، وكيف يقطر ، وكيف تسيل الحلاوة ! ثمّ تتبسّط الحيّة ،

في وصف التفاح ، وصفاً سائغاً لذاً ، لو رنّ طرف منه في أذن آدم — وهو لا يزال في تلك الساعة ، عند بيوت الحمام ، لابتلع تفاحتين ، اثنتين ، بالقشر والعجم ، قبل أن تفرغ الحيّة من الوصف !

فتقول لها ، في جملة ذلك ، ما مؤدّاه ، على التّقريب :

— خابت العناقيد ، ياسيّدتي ، عند معاقد شعرك !

وزمّ الرّمان أزراره ، من الخجل ، دون أصابع قدميك !....

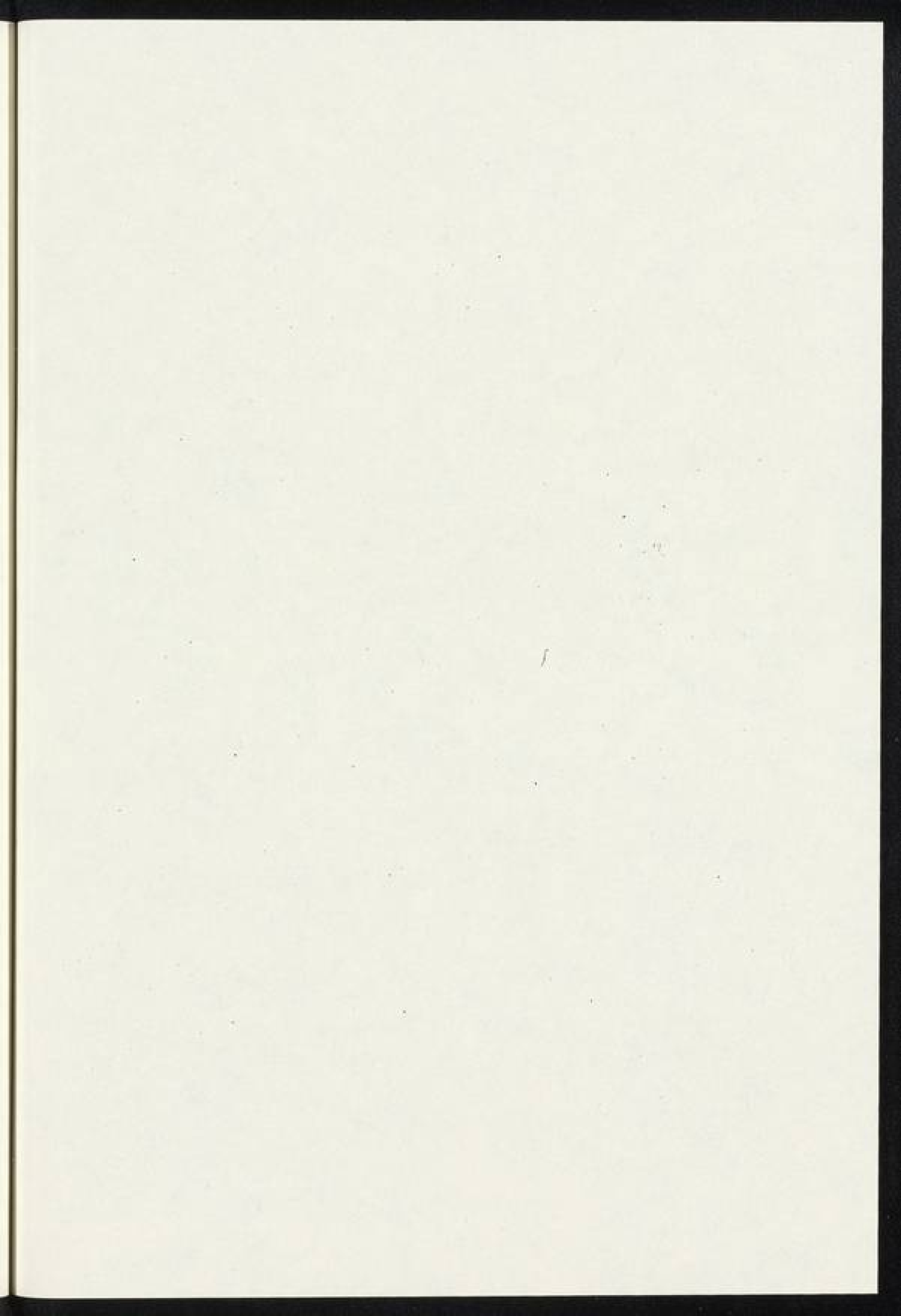
أمّا التفاح ، فما عساي أن اقول فيه ؟ ما عسى أن يقول فمٌ في تفاحة ! أشمّه ، فتسترخي نفسي من طيب الحرام ، وألوي عليه ، وألتفّ ، فكأني غمرت النّعيم بكلتا يدي . ثمّ اعضّ ناحية المَلح المحض ، والحلاوة الخالصة ، فيندلع لساني من فرط التشهّي : طعم يبلغ حيث لا يبلغ طعم ، واستمراء طيّب المقطع ، ومضاغ ذو نفَس ، وفتق التذاذ يصبّ من خالص العظم ، وجمام فيه مستغنى عن التّمطّي ، و كفاية من التّضجّع ! فياطيب التفاح ، من حرام ، هو أطيب من كلّ حلال ، ويا غفلتك عنه ، في هذا الفراغ ، الذي يملأ عدناً ، على أن ليس بينك وبينه الا مدّ اليد !!

فتناولت حوّاء التفاحة ، وانطلقت تفتش عن آدم ، في أحد المنازه ، حتى ظفرت به ، فشمّ وشمّت ، وعضّ وعضّت ، وأخذت التفاحة تقطر على الأرض .

(السبت)

فعلم صاحب الجنة ، سبحانه ، انّ شجرة التفاح ترتجف ، من المعصية . وكان آدم وصاحبته قد انكشف لهما الأمر ، وانفتحت أعينهما ، ورأيا عريهما ، فانسلّا وراء الشجر ، في بعض العطفات ، يختبئان من صاحب الجنّة ، خوفاً وحياء ... ذهب يوم الخلوة والقصف ، وجاءت ازمان التنغيص ، والكدر ، وتحطيم القلب ، والانزعاج عن الفردوس !

فأخرجهما ، سبحانه ، من عدن ، وانطلقت حوّاء ، من فورها ، الى أقرب خياطة ، في الشارع ، تستبدل عندها ذلك المئزر من ورق التين ، وراح آدم يغرس اشجار التفاح ، في حديقة المنزل ــ وقيل : الحمد لله !



كلمة الختام

(الى القارئ)

رفقة كتاب واحد ، كرفقة يوم واحد ، هيهات أن تنقع غلّة ! فاذا طويتَ هذه (المفكِّرة) ، فلا تستعجلْ رأيك في صاحبنا ، فانّ بينك وبينه اياماً أخرى . وأمّا اذا انقطع اللقاء ، فيكون لك من الرأي ، عندنا ، أن ترجع الى الكتاب غير مرّة ، تتمكّن من أغراضه ، وتتوفّر على دقائقه ، وأن لا تستكثر الرجعات ، فخير القرّاء كخير الكتّاب ، لا يكتفي بمرّة !

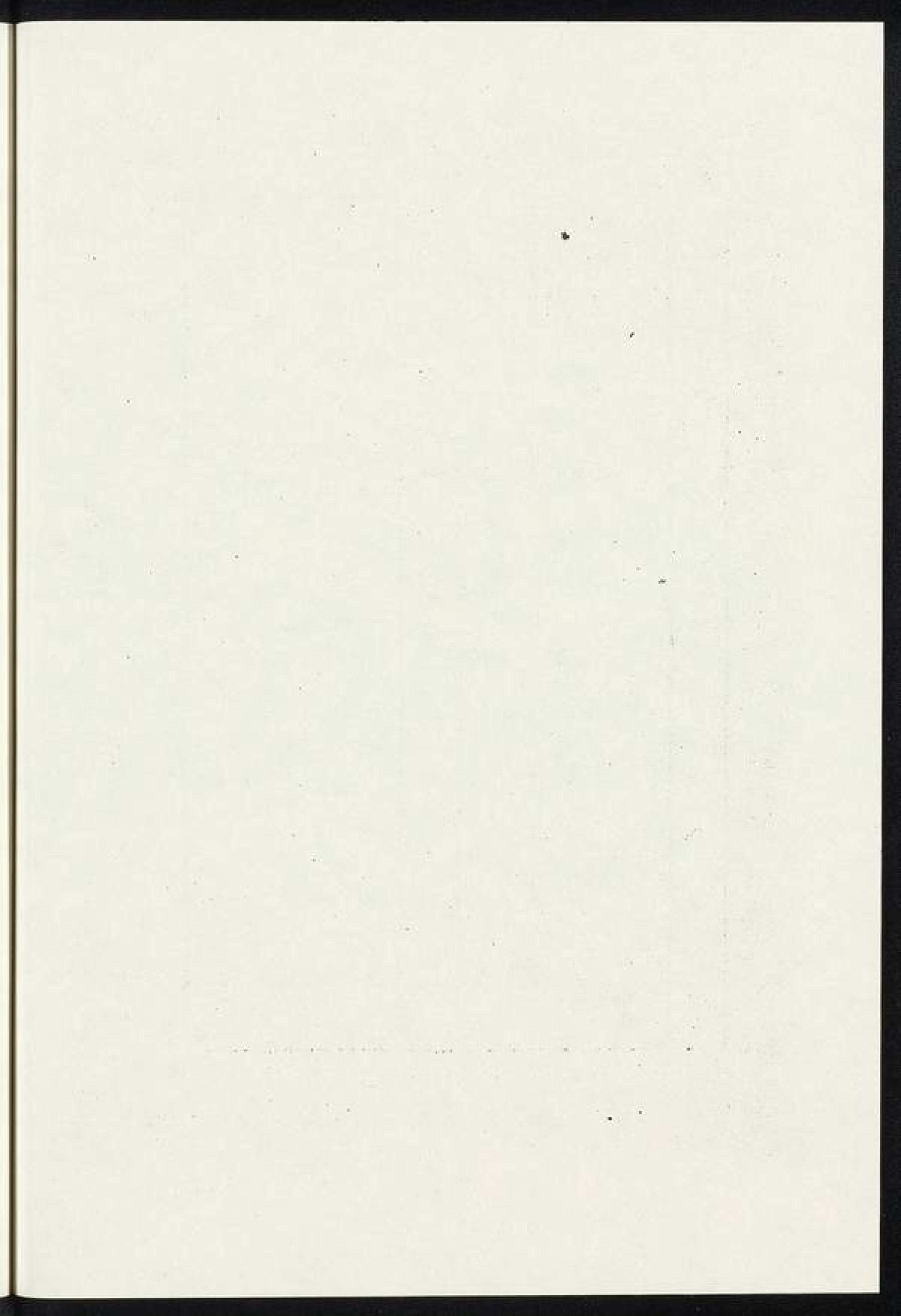
فأمّا اذا انقلبت عن الكتاب ، آخر الأمر ، وكأنك منه في مثل أوّل عهدك به ، فنصيحتنا لك أن تطرحه عنك ! وما لك ، بعدُ ، ولهذه الأغراض القصيّة ، والدّقائق الضئيلة ، التي يُجمع لها الفكر ، ويُحصر عليها النّفس ، ويُستنفد العمر ... ونحن ، يومئذٍ ، يلهمنا

الله سلواناً في قارئ فرط من يدنا !

. . .

بقي أن نذكر لك، انّ (فؤاد افندي) ، يحمد الله، الآن، فلقد كتب هذه (المفكِّرة) !ـــ كأنما هو ، بذلك ، قد طرح ثقلًا من نفسه !! وانه يرجو أن تعلم انّ هذه القضايا ، التي مرّت بك ، في الكتاب ، لم تبقَ ، اليوم ، من مشاغل باله .

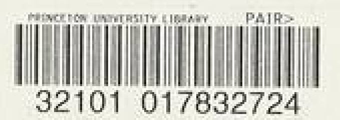
الفهرس

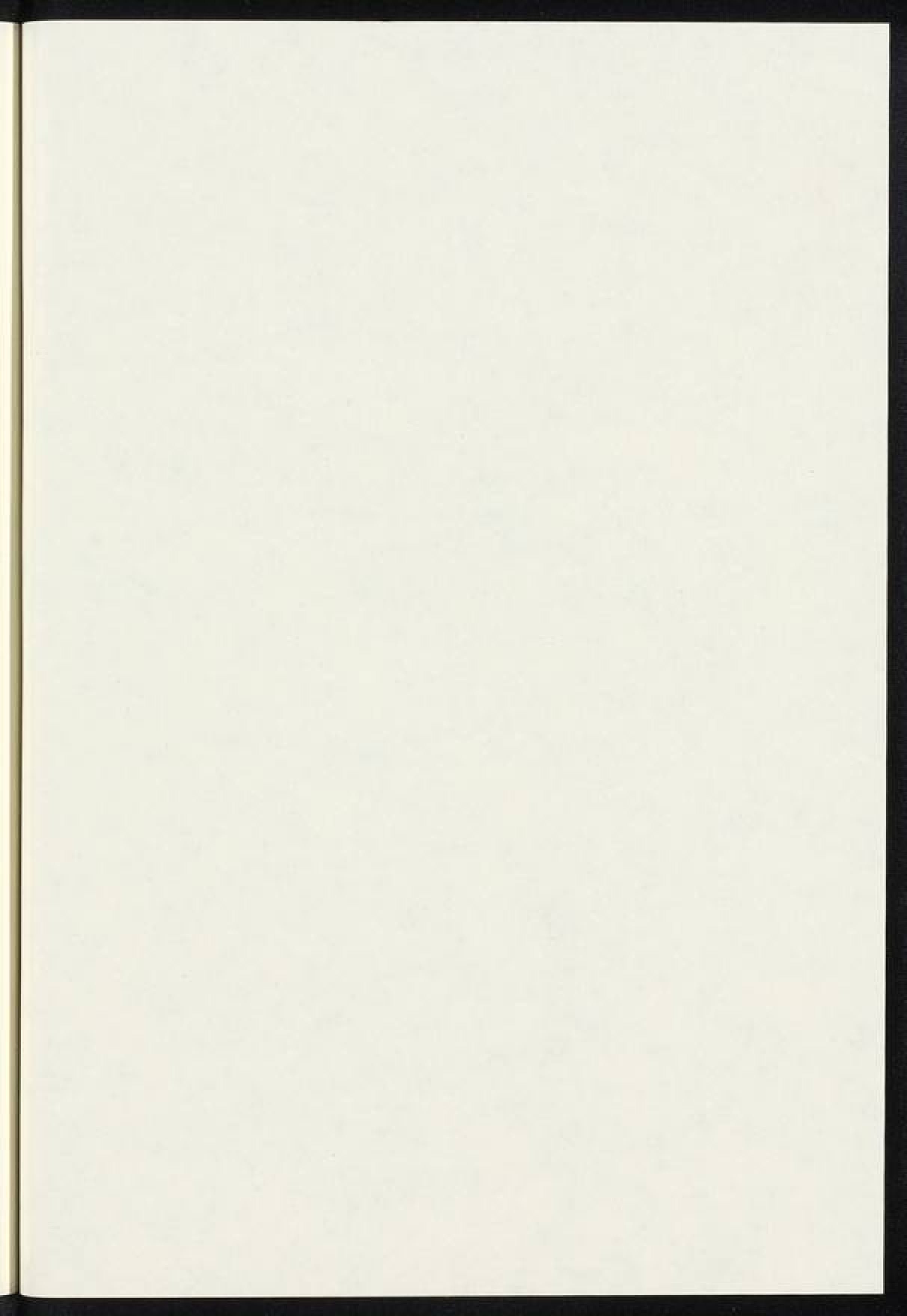


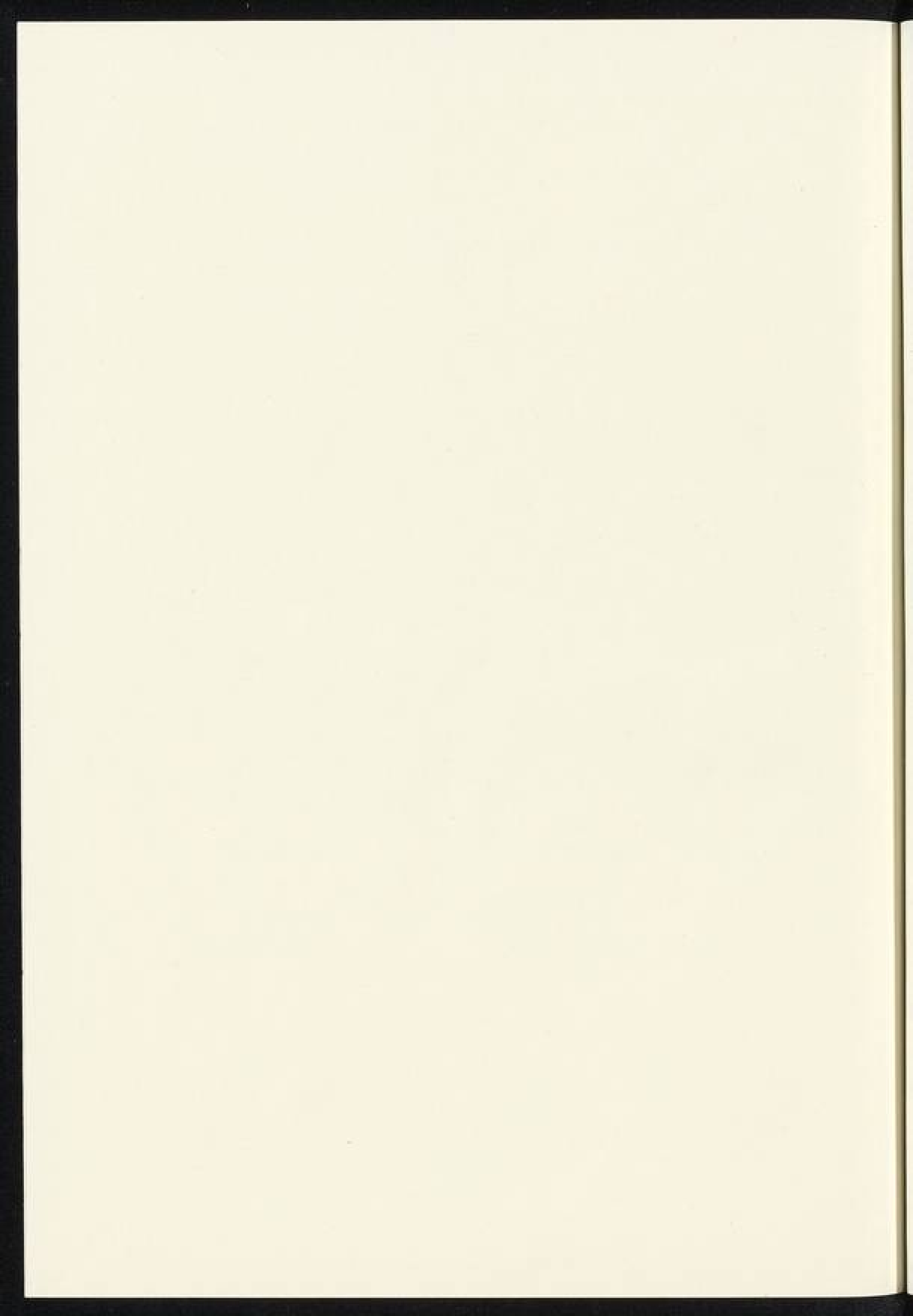
كان ينبغي أن يُرسم (الـلوءلوء) و (تومن) ، في الصفحـة ١٠٧ ، بالصورة التي يراها القارئ هنا . ولكنّ الطابع سها عن تحرير ذلك . وقد غفل ، ايضاً ، عن تحرير اشياء أُخر ، لا نطيل باستيفائها ، فالوجه فيها يُدرك بأدنى رويّة .

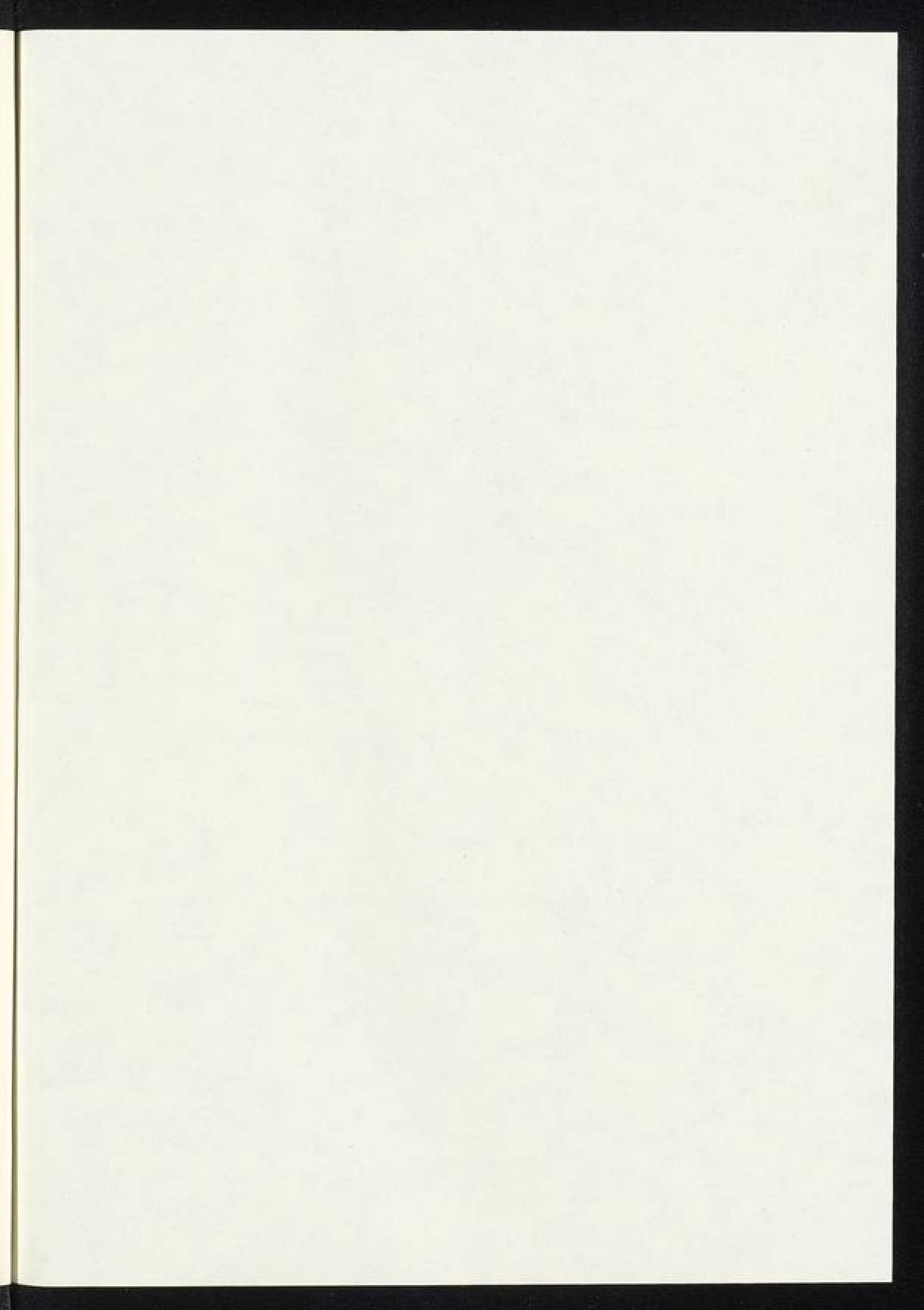
عدد النسخة — ٢٥٢

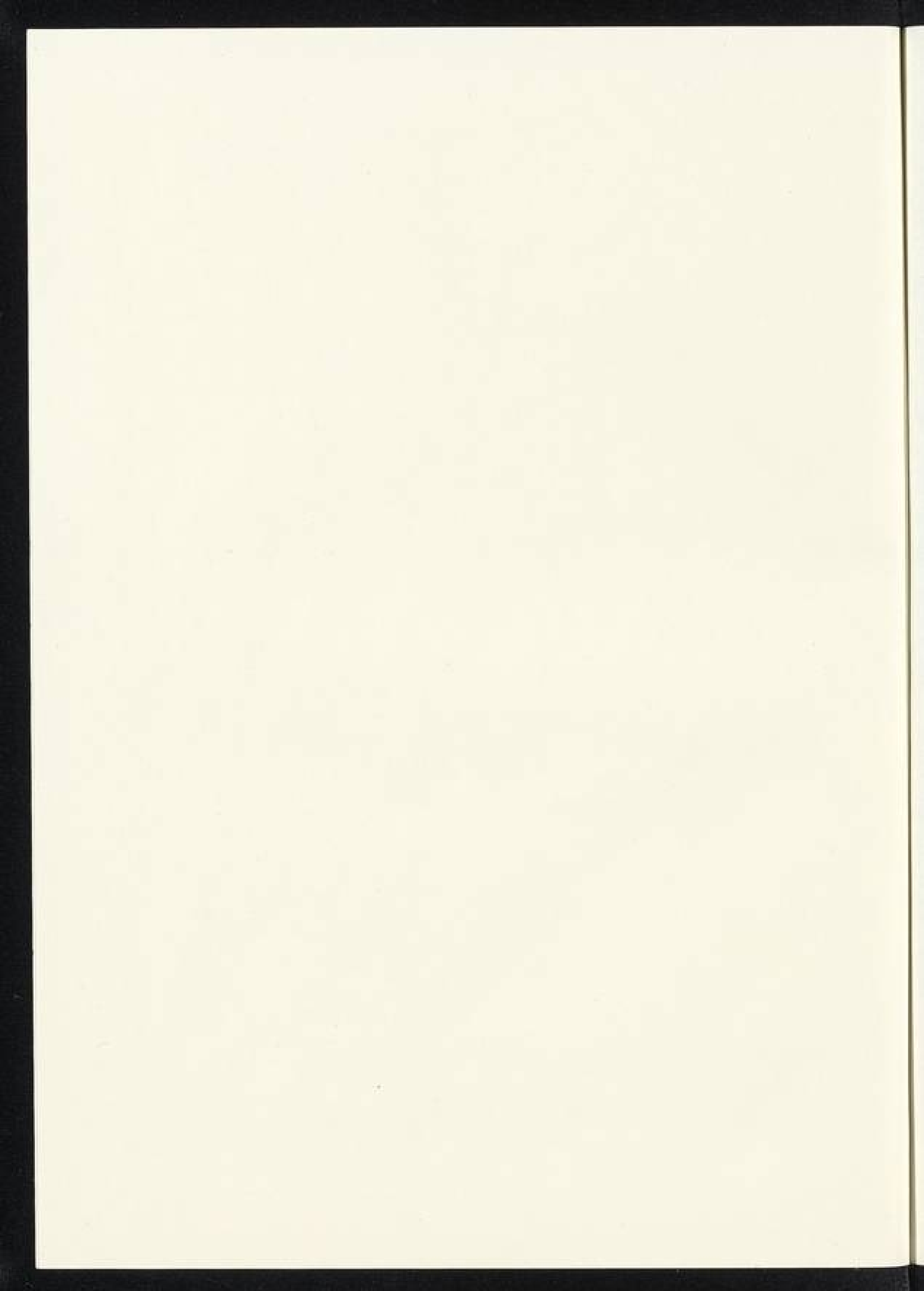
تمّ طبعه في الخامس عشر من شهر تموز ، سنة اثنتين واربعين وتسعمائة وألف .


PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>
32101 017832724

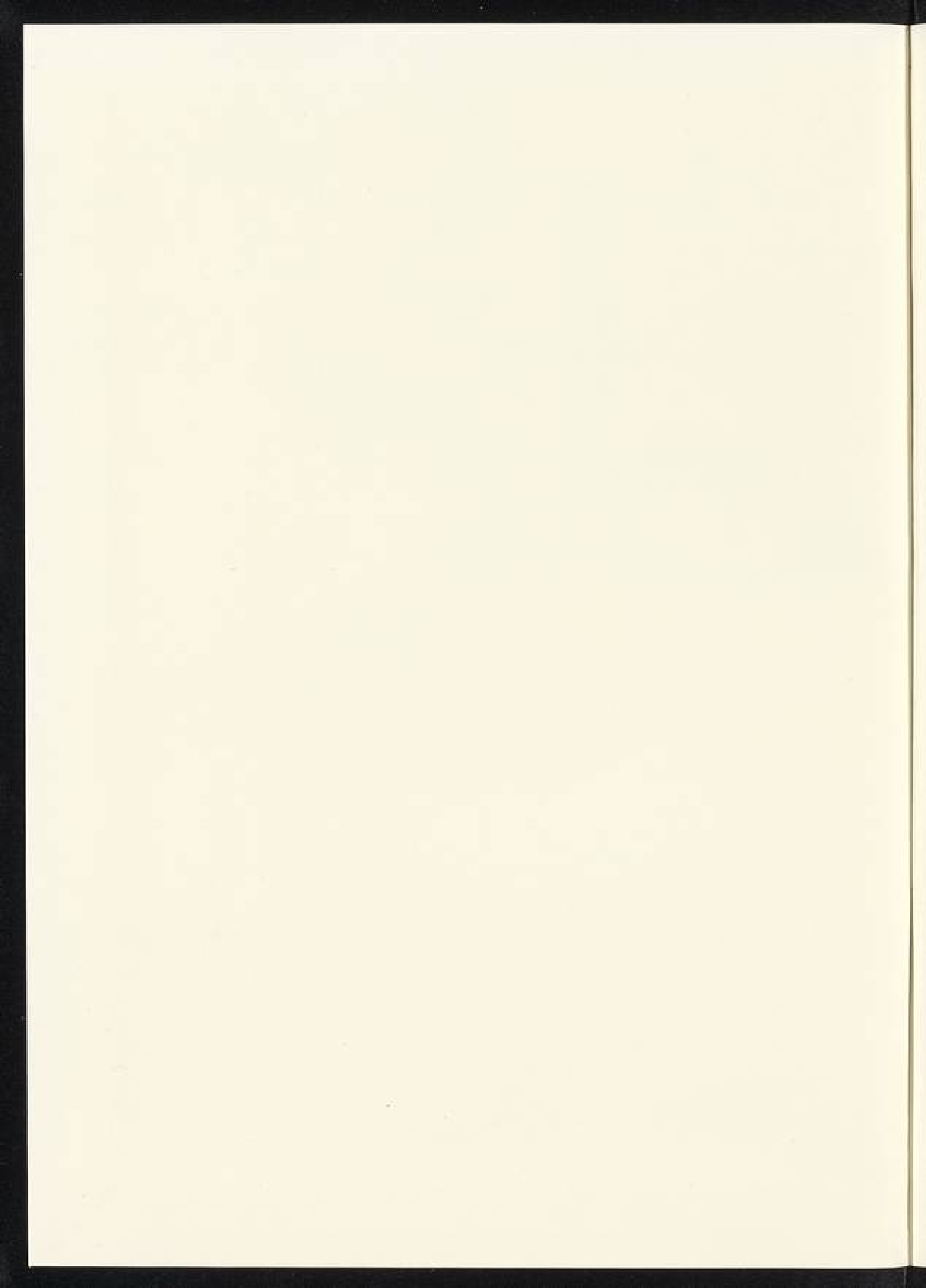


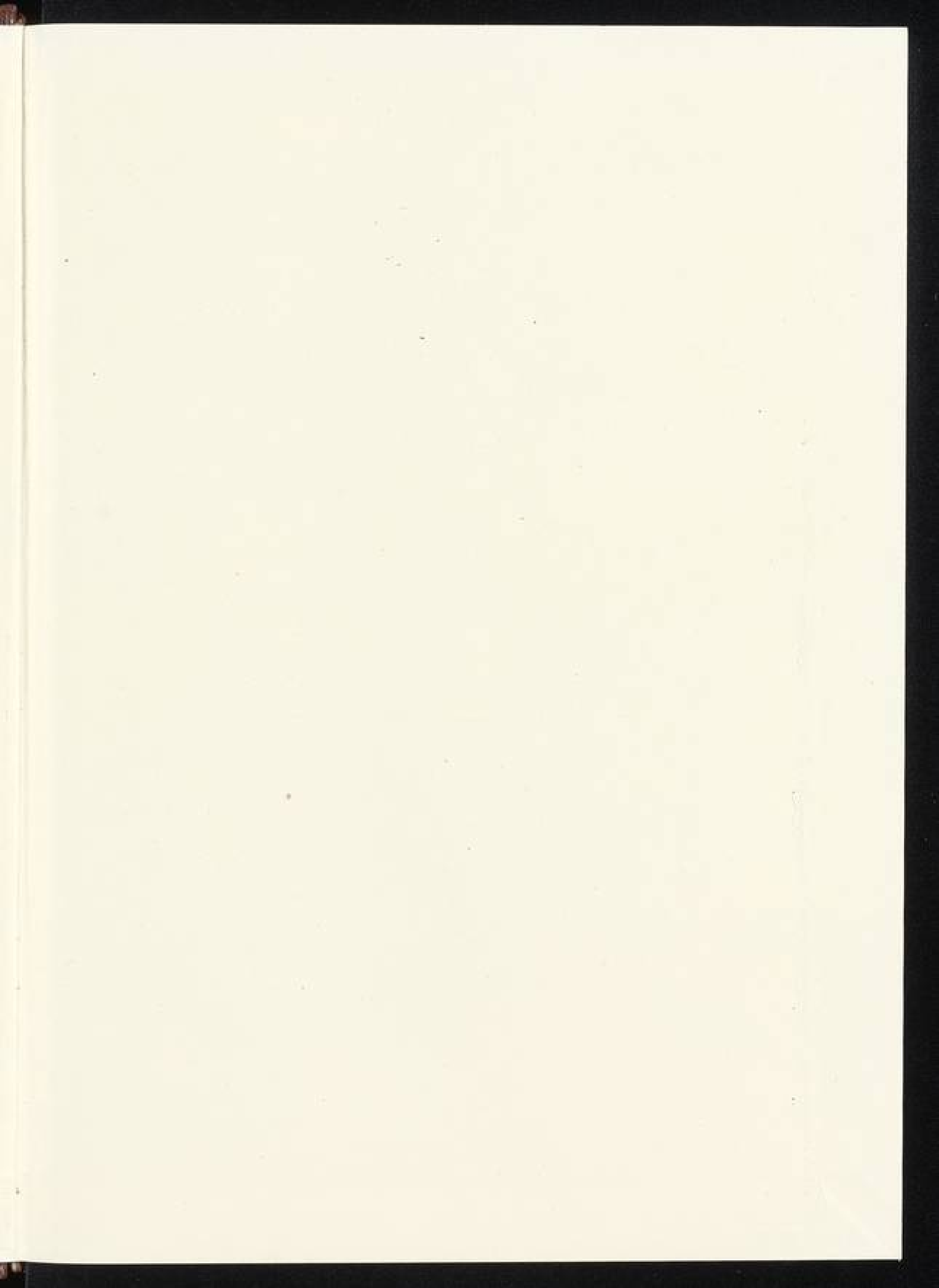













VETVS & NOVVM TESTAMENTVM
DEI SVB NVMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY